البيئة والشريعة الإسلامية

دراسة لبعض من جوانب الأدب الإسلامي

بقلم
رمضان لاوند

تمَ تحميل هذا الملفّ من مكتبة الأديب الرّاحل رمضان لاوند | جميع الحقوق محفوظة © www.RamadanLawand.com

البيئــة والشريعة الإسلامية

دراسة لبعض من جوانب الأدب الإسلامي

الكويت : 1986/2/25 **إصدار: مجلة البيئــة**

مقــدمــة : -

يقول الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله : " وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ " الآية 38 من سورة الأنعام . ويقول جل وعلا أيضاً : " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا .." . الآية 3من سورة المائدة .

وهذا يعني أن المسلم الذي يستقبل كتاب الله وما صح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنهما الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هو نفسه الذي يعتقد في الوقت ذاته بأن الله عز وجل لم يترك شاردة ولا واردة مما يحتاج إليه عباده للفوز في الدنيا والآخرة . وهو نفسه الذي يعتقد بأن وحي السماء جاء كاملاً في التعريف بدين الله ومتمّماً لنعمة الله عز وجل في تعريف هؤلاء العباد بكل موازين الحق ومواطن الباطل ، وأخيراً هو نفسه الذي يؤمن وهو يتدبر الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن هذا الرسول الكريم لا ينطق عن الهوى بل هو وحي يوحى إليه.

****

في ضوء ما سبق يشعر المسلم بأن الرسالة الدينية التي انتهت إليه لا تحريف فيها ولا تبديل ، وأن القرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بقي محفوظاً لم يطرأ عليه أيضاً تغيير ولا تبديل لأنّ حفظه هو مما تعهد الله عز وجل بالقيام به كما في قوله عزّ مِن قائل : " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " الآية 9 من سورة الحجر . بحيث لا تبقى حجة قائمة لمن يحاول أن يشكك في سلامة النص القرآني.

وإذا كان القرآن قد وصل إلينا كما جاء به جبريل عليه السلام نصاً للتلاوة والتدبّر والتعبد، وإذا كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن حديثاً نابعاً من اجتهاد إنساني بل من إلهام إلهي يؤكده قوله تبارك وتعالى : "وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى(3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(4) " سورة النجم . فإنّ من الطبيعي أن تكون التعاليم والأوامر والنواهي الصادرة عن هذين المرجعين شاملة لكل شروط الفوز في الحياة الدنيا وفي الآخرة وموصولة بكل الجوانب المادية والأدبية . فالشمول هو حقيقة هذا الدين والسمة البارزة فيه . ولذلك أخبرنا الله عز وجل أنه جاء " هدى ورحمة " لعباده.

****

والشمول في الإسلام يعني تعليم الإنسان المتدين بهذا الدين أصول التعامل مع كل من يتعامل معهم من البشر ، ومع كل ما يتعامل معه من الكائنات المادية التي تحيط به من كل جانب .. من فوقه حيث السماوات السابحة في الفضاء ومن تحته حيث الأرض التي يدرج فوقها ...

والشمول ايضاً يعني وحدة الرؤية ووحدة النظام ووحدة السنن والقوانين وبالتالي وحدة الإرادة التي فرضت القوانين والسنن ووحّدت أبعاد النظام وعينت حدود الرؤية . فلا بدع أن يكون الالتزام بهذه الوحدة وتعاليمها شرط النجاح والفوز ، كما ذكرنا من قبل ، في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

والجدير بالذكر أن وحي السماء حمل إلينا المعلومات والحقائق الأساسية التالية :

1) الغرض من خلق الجن والإنس هو العبادة : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ " الآية 56 من صورة الذاريات.

2) أن الإنسان خلق ليكون خليفة في الأرض . " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ". الآية 30 من سورة البقرة .

3) أن السماوات والأرض وما بينهما مسخرة لهذا الإنسان : " وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " الآية 13 من سورة الجاثية.

4) أن العبادة المطلوبة من العباد هي التي ترتكز على قاعدة شاملة حدّدها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : "لا ضرر ولا ضرار ".

5) أن كل " ضرر أو ضرار " قد يصدر عن الإنسان لا يخفى على الله منه شيء . أكان الضرر أو الضرار متعلقاً بمصالح الإنسان مباشرة أو متعلقاً بالمخلوقات التي سخرت له.

****

وخلاصة هذه المبادىء الخمسة تتجسد في واقعين : مادي وأدبي .. وبتعبير آخر : تتجسد في بيئتين : مكانية وزمانية .

وكل من هاتين البيئتين مرتبطة بالأخرى . فرعاية البيئة الأدبية أو الزمانية تنتهي حتماً برعاية البيئة المادية . والعكس بالعكس ، لأن شروط الرعاية في كل منهما هي نفسها لا تتغير .

****

والمسؤولية في هذه الرعاية هي مسؤولية فردية .. فلا يجوز أن يتحملها فرد من الأفراد دون غيره مهما علت مكانته ، وإن تفاوت ثقلها بتفاوت المكانة التي يشغلها هذا الفرد ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كلكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته ".

ويترتب على هذا المعنى رفض كل تبرير للتخلف عن القيام بهذه المسؤولية بدعوى الضعف أو التبعية أو الفقر أو أي ظرف من الظروف ما لم تكن هذه الظروف فوق طاقة الفرد. وقد جاء هذا المعنى في قوله عز وجل " لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. " الآية 286 من سورة البقرة.

ولمّا كان الالتزام بشروط الحفاظ على البيئة المادية أو الأدبية شيئاً في إمكان كل إنسان فإنّه لا يغفر له أن يتجاهل رعايتها تحت أي مبرر وفي ظل أي ظرف من الظروف . فلا يقبل الإهمال أو الاستهتار بدعوى أن الآخرين مهملون أو مستهترون . فعلى كل مسلم أن يقوم بواجبه في حدود قدراته الخاصة بغض النظر عن قيام أو عدم قيام الآخرين بواجباتهم . " قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ " الآية 164 من سورة الأنعام .

في ضوء ما سبق جاءت الشريعة الإسلامية بالأوامر والنواهي التي يستطيع كل إنسان إن صحت نيته أن يعمل به، وبالتالي أن يساهم وسعه في الحفاظ على البيئة المادية التي سخرتها العناية الإلهية له ، وفي الحفاظ على البيئة الأدبية ، التي هي الحافز الأساسي والكبير إلى السهر بأمانة على البيئة المادية أو المكانية.

****

هذا هو مفهوم العبادة في الإسلام . وبفضل هذا المفهوم نستطيع أن ندرك العلاقة الحقيقية التي رسمتها العناية الإلهية بين العابد ومن حوله وما حوله من الناس وأشياء الخلق كلها.

وقبل أن نتعرف إلى التفصيلات الخاصة بكل من البيئتين المكانية والزمانية أو المادية والأدبية ، يجب أن نتذكر حقيقة أساسية هي أن المسؤوليات التي يفرض على العابد القيام بها قد عبر عنها القرآن الكريم بكلمة واحدة هي "الأمانة " التي وردت الإشارة إليها في قوله عزّ مِن قائل : " إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا " الآية 72 من سورة الأحزاب.

****

يبقى أن نسجل ونحن نعد هذه الرسالة الخاصة بدراسة موقف الشريعة الإسلامية من موضوع البيئة بأن من الموافقات الطيبة والسعيدة أن يجري هذا الإعداد في الوقت الذي تستعد فيه الكويت أميراً وحكومة وشعباً للاحتفال بالعام الخامس والعشرين من يوم الاستقلال الذي انتزعت فيه الكويت حقها الكامل في الهيمنة على مقدراتها الوطنية وصنع مصيرها بعيداً عن أي تدخل أجنبي.

ولعل من أهم مما في مفهوم السيادة الوطنية أن يكون وعي المواطن بمسؤولياته نحو ترابه الوطني وكل ما يتصل بسلامة بيئته وطبيعة علاقته بالتراث البشري قد بلغ درجة من القوة تكون استجابة ضرورية للمسافة الزمنية التي اجتازتها هذه البلاد وهي تسعى إلى تدعيم بنيتها الاجتماعية الاقتصادية وبخاصة الصحية، في ضوء وعي ديمقراطي تتجند به كل القدرات والعزائم ويتكرر التعهد بمتابعة مسيرة السيادة بحيث تصبح أرض الكويت وبحارها وسماؤها نموذجاً يقتدي به الوطن العربي كله الذي يجد في نهضة هذا البلد العربي وحمايته من الأخطار ما يجده في كل نهضة موجودة لكل بلد عربي آخر . ذلك أن سلامة الكويت أرضاً وبحراً وسماء هي إسهام في تحقيق السلامة المرجوة للوطن العربي كله.

****

هكذا يتسع مفهوم العبادة في ديننا الحنيف أو تبدو لنا أبعاده الحقيقية التي تستوعب كل اهتمامات المواطن بغض النظر عن عقيدته الدينية بحيث يصح أن تطلق عليه صفة الشمول كما سبق أن ذكرنا من قبل في هذه المقدمة. وعلى أمل أن يكون ما أثبتناه في هذه الرسالة اسهاماً متواضعاً في توعية الإنسان العابد نحو بيئته نسأله تبارك وتعالى أن يجعل من هذه المحاولة مشاركة خالصة في الاحتفال باليوم الوطني الخامس والعشرين ، وأن يوفقنا إلى ما فيه صلاح دنيانا وآخرتنا ، إنه سميع مجيب.

بين البيئــة والانتمــاء الوطنــي

في الخامس والعشرين من شباط (فبراير) من كل عام تحتفل الكويت بعيدها الوطني .. العيد الذي يستعرض فيه كل مواطن جملة النعم العظيمة التي حصل ويحصل عليها ، وتمتع ويتمتع بها بفضل إحساسه بالسيادة على أرضه.

ولا عجب في أن تكون هذه المناسبة الوطنية ينبوعاً لأجمل الذكريات وأروع مشاعر الاستقرار ، وأعمق الإحساس بالطمأنينة نحو المستقبل .

وليس الانتماء الوطني غير الحصيلة الضرورية والحتمية لكل تلك الأحاسيس والمشاعر التي تمنحنا الرضا وإرادة الحياة والرغبة الجارفة في الحفاظ عليها.

****

ولو أننا لجأنا إلى الحكمة الإلهية التي نجدها مسطورة في كتاب الله لتبين لنا أن البيئة هي واحدة من النعم الكبيرة التي لا يحصيها عد ولا يستوعبها حساب حين يبدو لنا أن نلجأ إلى الحساب أو العد.

وثبت لنا أن ما سمي (أمانة) في كتاب الله تدخل فيه ظاهرة الانتماء إلى الوطن.

ومفهوم الوطن في القرآن أوسع كثيراً من مفهومنا التقليدي له.

فالوطن ليس هو الأرض اليابسة التي ندرج فوقها وحسب، وليس هو البحر الذي يحيط بهذه الأرض فقط ، بل يضاف إليهما كل ما في السماوات التي نستظل بها وما بين السماوات والأرض من مصادر الحياة وأشياء الجمال وأسباب البقاء .

لنتصور مثلاً أن سماءنا الدنيا عارية من زينة الكواكب ، خالية من دفء الشمس وضوئها ، وجمال القمر ونوره ، ومن الرياح التي تتحرك فوقنا ، ومن الليل والنهار المتعاقبين حيث نجد الراحة في الأول والعيش في الثاني .. أفلا نجد أنفسنا أمام عالم أجرد نفتقد معه الإحساس بالراحة ويأتينا الخوف معه من كل مكان ؟

فلا عجب من بعد أن يتحدث القرآن عن النعم التي لا سبيل إلى إحصائها والتي تتمثل في السماوات والأرض وما بينهما؟

لقد تحدث الوحي السماوي عن هذا كله جملة وتفصيلاً لا على سبيل الإحاطة ، إذ لا سبيل إلى الإحاطه بها، بل على سبيل التمثيل وحسب.

يقول الله عز وجل في الآية العشرين من سورة لقمان : " أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ "..

ثم تتكرر الإشارة إلى النعم تفصيلاً فيقول تبارك وتعالى :

" اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ " الآية 2 سورة الرعد.

" اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ(32) وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ(33) " سورة ابراهيم.

" وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " ..الآية 14 من سورة النحل.

" ثم تأتي الآية الجامعة (164) من سورة البقرة التي جاء فيها قوله تبارك وتعالى : " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ".

****

وكما أن الحفاظ على الحياة ، والالتزام بالأوامر والنواهي ، والاستمساك بالعقيدة، داخلة كلها في مفهوم الأمانة على أساس أن الحياة والتعاليم السماوية والعقيدة كلها نِعَم منحتها العناية الإلهية للعباد وطالبتهم بالقيام عليها بإحساس عميق بالمسؤولية .. فإنّ النعم الأخرى التي ذكرت في الفقرات السابقة هي أيضاً وضعت مسؤوليتها أمام الإنسان ليقوم عليها

ويحتفظ بها بعيداً عن مصادر التلوث والأسباب التي تعرض هذا الإنسان لأخطار مرضية وربما تعرضه لأخطار الإبادة والفناء ..

****

كل نعمة من نعم الله أمانة .. وكل أمانة مسؤولية .. والمسؤولية يحاسب أصحابها عليها .. وكما أن حفظ الأمانة المتمثلة في الحياة والتعاليم والعقيدة قضية مصيرية فإنّ حفظ الأمانة المتمثلة في بقية النعم قضية مصيرية أيضا .

لقد علمنا القرآن الكريم أن الدنيا أخذ وعطاء ، والمصير هو الذي يصنعه الإنسان فيقرر به أن يكون من المفلحين أو الخاسرين . والجدير بالذكر أن الانتماء الوطني يزيد وينقص بزيادة إحساس المواطن بعظمة المسؤولية الملقاة على عاتقه نحو البيئة التي تحيط به وبنقصانه . فالبقدر الذي نمنحه للوطن من العناية والرعاية تتحدد مكانتنا من الانتماء الوطني . ذلك لأن الانتماء الى وطن هو أيضاً جزء من أمانة الإيمان بالرسالة التي جاءت هدى ورحمة للناس ..

إنّ الكويتيين والمقيمين على أرض الكويت مسؤولون أمام الله وأمام أنفسهم وأمام بعضهم بعضاً عن سلامة البيئة التي يتمتعون بما توفره لهم من أسباب الحياة الهانئة .. وكما أن قتل النفس جريمة كبرى يحاسب الإنسان عليها . ويستحق العقوبة المناسبة بسببها فإنّ العمل على قتل البيئة بتلويثها جريمة لا تقل بشاعة عن جريمة قتل النفس . ذلك لأن حرمان البيئة من توازنها وأسباب الازدهار فيها هو قتل لنعمة من نعم الله كما أن قتل النفس البشرية بغير حق هو قتل لنعمة من نعم الله أيضاً.

****

والجدير بالذكر أن ما يسمى اليوم (وعي حضاري) هو تعبير مرادف في تراثنا الديني لما نسميه (الأمانة) التي وردت الإشارة إليها في كتاب الله ..

ولما كانت الشعوب تتمايز في (وعيها الحضاري) فتحصد ما تزرعه من شتلات الخير والأمن والثراء والاستقرار والطمأنينة إلى المستقبل ، فإنّ الشعوب نفسها تتمايز في وعيها بخطورة (الأمانة الدينية) فتحصد ما تزرعه من العمل الطيب والفكر الرشيد والاستقامة السديدة .

****

ولما كان حجم المسؤولية يزيد وينقص بزيادة حجم النعم التي يتمتع بها صاحبها ، فإنّ الثابت أن الإنسان الذي هدي إلى اكتشاف قوانين الكون والطبيعة والحياة مما تجاوز به الأجيال السابقة يجب أن يزداد إحساسه بالمسؤولية نحو النعم الكبرى الجديدة التي حصل عليها بعد أن هدي إلى الكشوف العلمية وبعد أن أصبحت جوانب جديدة من قوانين الكون والطبيعة والحياة كتابا مفتوحاً أمام عينيه.

والجريمة الكبرى التي يمكن أن يقترفها الإنسان هي تلك التي تصدر عن رغبته العنيفة في الأخذ والإفادة وامتناعه عن مقابلة هذه الرغبة بالعمل على صيانة الكون والطبيعة والحياة وهي المصادر الأساسية لما يتمتع به من أسباب السلطان والترف والراحة ..

****

والمؤسف أن إنسان اليوم قد راغت منه البصيرة ، وسيطرت عليه الشهوات ، وتملكته مشاعر الإنانية .. فهو يسعى في سباق محموم إلى الكسب ، وهو يعمل ليل نهار في كنز ما يستطيع كنزه من الثروات دون أن يبالي بما يترتب على سباقه المحموم وكنز الثروات من إساءة إلى الأرض التي مهدت له والسماء التي ظلل بها .

السباق المحموم وكنز الثروات بدأا يكونان منذ الحصول على التكنولوجيا المتطورة ، ومنذ الكشف عن ثروات جديدة في باطن الأرض ، مصدرين خطيرين لا لتلويث الأرض اليابسة وحسب بل لتلويث البحار والأنهار والهواء.

وقد كان في وسع الإنسان أن يتجنب التورط في هذه الجريمة لو أنه وضع حداً لشهواته .. وتمتع برؤية مستقبله في ظل إحساس لا بالوحدة الوطنية فقط بل بالوحدة الإنسانية أيضاً.

فالكرة الأرضية بعد أن أصبحت أو كادت تصبح مدينة واحدة كبيرة لم يعد في إمكان أحد أن يتعامل معها كما كان الناس في الماضي يتعاملون معها ..

****

المسافات قصرت بعد أن كانت طويلة جداً بفضل المركبات الجوية . وانتقال الآثار القابلة للتسمم والتلويث أصبح ميسوراً وسريعا بفضل قصر المسافات . والمصالح الاقتصادية لم تعد وحدات منفصلة متباعدة بل أصبحت وحدة متحدة الأجزاء متقاربة الأبعاد بحيث لا يتعرض وطن لأزمة حتى تنعكس نتائجها السيئة على بقية الأوطان . وهذا يعني أن التقدم العلمي وما يترتب عليه من تطور التكنولوجيا وتداخل المصالح العالمية الدولية أصبح في حاجة إلى إنسان وطني ذي رؤية عالمية لكن الإنسان في الواقع لم يحقق تقدماً ملموساً في الارتفاع إلى مستوى المسؤولية العالمية.

****

والمؤسف أكثر فأكثر أن غيبة الإنسان اليوم لا تقتصر على ضيق رؤيته للمصير العالمي المشترك بل هي حقيقة قائمة في حدود رؤيته لوطنه ... للأرض التي يتغذى من زرعها .. والبحر المجاور الذي يأكل منه لحماً طرياً .. والهواء الذي يتنفسه .. بل والناس الذين يعايشهم فوق ترابه الوطني .

****

إن الشعب الكويتي وجمهور المقيمين فوق أرض الكويت يفترض فيهما وهم يواجهون الاحتفال بالعيد الوطني لهذا البلد أن يذكرا بأن الحفاظ على سلامة الأرض ، ونقاء المياه ، وطهارة الهواء من فوقهما هو في الحقيقة حفاظ على حياتيهما أولاً وبالذات، ثم إسهام غير مباشر في الحفاظ على سلامة الكرة الأرضية التي لم تعد في الحقيقة والواقع غير مدينة واحدة كبيرة كما ذكرنا قبل قليل .

****

المطلوب هو على الأقل أن يفكر كل من يعيش فوق تراب الوطن الكويتي بنوع من الإيثارية والموضوعية فيتحرر من شهوة الكسب المحمومة كما لو أنه يعيش في عالم منفصل عن عوالم الآخرين . والإيثارية والموضوعية في مواجهة المسؤوليات الوطنية قد تحرمان صاحبهما من بعض المكاسب التي لن يستطيع استهلاكها ولكنهما في الوقت نفسه تثريان إنسانيته وترتفعان به إلى مستوى من الوعي الحضاري وتوفران له الفوز لا في حياته الدنيوية وحسب ، بل في حياته الأخروية أيضاً ، هذا إذا كان وعيه بعقيدته على مستوى الأغراض النبيلة التي جاءت هذه الرسالة لتحقيقها .

وكما أن الانتماء الوطني لا يتحقق برفع الشعارات والحماسة العمياء فقط . فإنّ الانتماء إلى الدين لا يتحقق بممارسة الطقوس الدينية وحسب ، فالشعارات مسؤولية تتجسد في الحفاظ على أرض الوطن وبحره ومياهه وهوائه .. والعبادات الدينية هي بدورها مسؤولية تتجسد في الحفاظ على سلامة النعم التي أنعم بها الله على عباده وفي مقدمتها سلامة الحياة ، وحسن التعامل ، وإعمار الأرض بتوفير أسباب الحياة والصحة فيها وغيرها مما تتشكل به البيئة التي هي شرط البقاء ..

****

الوطنية ثقافة يدخل في معناها توريث النعم الوطنية الى الأجيال الطالعة نظيفة سليمة معافاة .. والصدق في العقيدة يدخل في معناه أيضاً توريث الحياة البيئية إلى الأجيال الطالعة نظيفة سليمة معافاة .

ولو فرضنا أن الثقافة الوطنية غائبة وأن الوعي الديني ضائع فلا أقلّ من أن يحافظ المواطن على الظروف الصحية لنفسه فيسهم بالقليل من الجهد والقليل من التضحية في الحفاظ على الأسباب الصحية لعيشه هو شخصياً ولأبنائه من بعده.

****

إن الاحتفال بالعيد الوطني لا يتجسد وحسب في إقامة المهرجانات ، وتنظيم الاحتفالات والمسيرات .. بل هو ذكر تستضيء به العقول ، ويستقيم به السلوك ، ويعمق فيه الإحساس بالانتماء إلى الأرض التي يدرج الإنسان فوق ترابها .

وبتعبير آخر نقول : أن الاحتفال بالعيد الوطني جزء من العبادة التي يمارسها العابد شكراً لله على نعمه وعزماً على حماية هذه النعم من الجرائح والأخطار.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) الآية 37 من سورة ق.

صدق الله العظيم ..

الموارد الطبيعية وعمارة الأرض

كل ما يصدر عن الكون والطبيعة من مصادر الحياة داخل في مفهوم " الموارد الطبيعية " يتساوى في ذلك ضياء الشمس في النهار ونور القمر والكواكب التي هي أشبه بالقناديل المعلقة في الليل ، وما يترتب على ضياء الشمس من الحرارة التي هي شرط أساسي من شروط الحياة ، والحزام الذي يحيط بفلك الأرض فيحجبها من الشعاعات القاتلة التي ترافق ضياء الشمس المتجه نحو الأرض ثم الرياح اللواقح وتياراتها التي تحمل الغمام وتحول بخار المياه إلى مطر يغيث البشر ويوفر لهم ما يطفئون به نيران العطش وما يستنبتون به طعاماً من الأرض ، ومياه البحر الحافلة بأنواع الحيوان الذي يأكل منه الإنسان لحماً طرياً ، وملوحة مياه البحر التي تحميها من التعفن ، ثم أنواع الثمار ولحوم الحيوان البري والطير المحلقة في الفضاء ، والأرض التي يستنبت ترابها بالبذار الطيب ، ثم انتظام حركات الأفلاك بما فيها حركة الأرض وهي الحركات التي تتم بحساب دقيق وبأقدار محددة فلا تسبق الشمس القمر ولا تختل دورات الأكوان كلها ، ثم الليل والنهار اللذان يتعاقبان ، وأخيراً تلك الدقائق التي طالما خفيت على إنسان القرون الماضية ثم اكتشفها إنسان القرنين الأخيرين واحدة وراء الأخرى بواسطة مجاهره التي بلغت درجة عالية جداً من القدرة على اختراق المجاهيل في الحياة والأحياء .. ولا ننسى في هذه المناسبة المناظير المكبرة التي جهزتها التكنولوجيا المعاصرة بما مكنها من كشف أغوار في الفضاء الواسع ما كان في وسع الإنسان في الماضي القريب أن يحلم بوصول علمه اليها.

وإذا كنا قد اعتبرنا كل هذه المواطن والمصادر موارد طبيعية فلأن الإنسان قد توصل بعد جهود إلى اكتشاف ظاهرة التكامل في الكون والطبيعة والحياة . وهذا يعني أن كل تغيير يجري في أي جزء من أجزاء الوجود لا يلبث أن يحدث أثره في الأجزاء الأخرى مهما بعدت المسافة بينه وبينها. على أنّ هذا التأثير قد يكتشفه الإنسان بأجهزته الحديثة وقد لا يكتشفه لكن الثابت أن فرضية التكامل والوحدة تجد في كل يوم علاقة جديدة تؤكد صحتها في نظر العلماء التطبيقيين والمنظرين .

والجدير بالذكر أن القرآن الكريم قد تحدث بصراحة تامة عن الكثير من هذه الموارد وأكد أهميتها جملة وتفصيلاً ، وضرورة الإقبال عليها والإفادة منها بعد التعرف إلى أسرارها.

أما الغرض من الإشارة إليها جملة فهو تقرير أن الخلق كله الموجود في السماوات والأرض وما بينهما هو مجموعة من الموارد المسخرة لخدمة الإنسان . فإذا انتقل الوحي السماوي الى التفصيل لم يتناول من أشياء هذه الموارد إلا ما يستطيع الإنسان أن يستوعبهه بقدراته التي منحته إياها العناية الإلهية . والسبب في ذلك أن في أشياء الخلق ما لا غنى عنه لاستمرار الحياة والأحياء ، رغم أنه قد يبقى مغيباً عن الإنسان مهما ارتفع في مدارج المعرفة . وفيما يلي نورد الشواهد القرآنية التي تحدثت عن هذه الموارد جملة وتفصيلاً :

إنّ الحديث عن الموارد الطبيعية " نسبة إلى الطبيعة التي تضم الأكوان كلها " وارد فيما يلي من كلام رب العالمين :

1) " أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ " الآية 20من سورة لقمان.

2) " وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " الآية 13 من سورة الجاثية .

الإشارة في هاتين الآيتين الكريمتين إلى جملة الخلق وإلى أنها مسخرة للإنسان واضحة جداً. ففي الآية الأولى تأكيد على عموم التسخير الذي يدخل فيه ما ظهر وما بطن من النعم . وهذا يعني أن في تفصيلات الخلق ما قد يبقى سراً مغيباً عن الإنسان وإن كان وجوده في السماوات وفي الأرض وفيما بينهما ضرورياً لاستمرار الحياة الإنسانية . وفي الآية الثانية توكيد صريح ، دون إشارة إلى ظاهر وباطن ، بأن كل ما في السماوات وما في الأرض هو في خدمة الإنسان.

ثم لا يقتصر وحي السماء على الإشارة جملة إلى هذه الموارد الشاملة المسخرة لخدمة الإنسان وتوفير أسباب المعايش له بل يتناول عرى طريقته التعليمية الوعظية كل التفصيلات التي يمكن للملكات الإنسانية الواعية أن تستوعبها وتستبين من خلالها دور الله الخالق عز وجل .

تحدث القرآن الكريم عن أنواع من التسخير نورد فيما يلي بعضها :

1) تسخير السماء الدنيا بحيث تكون زينة لفضاء الأرض ومصدراً من أروع مصادر الجمال الذي يبعث الرضى والسكينة في النفوس . بالإضافة إلى أن لهذه السماء الدنيا دوراً في حفظ الكرة الأرضية استمرار لصلاحها بيئة طيبة للحياة والأحياء .. وقد عبر القرآن عن هذين الغرضين بالآيات الكريمة التالية :

أ – " إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6)وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ(7) " سورة الصافات .

ب – " فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ " الآية 12 من سورة فصلت.

ج – " وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ " الآية (5) من سورة الملك .

د – " وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ(16)وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (17)" سورة الحجر .

هـ – " أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ " الآية (6) من سورة (ق).

هكذا يبدو لنا أن أول نوع من أنواع التسخير التي تتحقق بها موارد الحياة والمعايش هو في استمرار السماء الدنيا زينة للكون وبصورة خاصة لعالم الأرض ومصدر حفظ للحياة والأحياء . لكأنه سبحانه وتعالى يقرر لنا حقيقة أساسية هي أنّ السماء الدنيا ضمانة أولى لاستمرار الحياة والأحياء بالإضافة إلى تقرير أن الجمال الذي هو حصيلة الزينة مصدر للرضى والسكينة اللتين تشتد حاجة الإنسان إليهما.

2) فإذا تقررت الحقيقة الأولى التي تعلن عن المورد الأساسي لبقاء الحياة والأحياء بفضل توفير الزينة والحفظ انتقل وحي السماء إلى تفصيل النعم الأخرى التي لا سبيل إلى إحصاء مفرداتها كما في قوله عزّ مِن قائل : " وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ " الآية (34) من سورة ابراهيم. فيتحدث عن المسخرات بأمره وقد سبق أن أشرنا إلى بعضها لكننا هنا نوردها كاملة في حدود ما جاء في كتاب الله عز وجل.

أ – " اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ " الآية (2) من سورة الرعد.

ب – " اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ " الآية 32 من سورة ابراهيم.

ج – " وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ " من الآية (32) من سورة إبراهيم.

د – " وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ " من الآية (33) من سورة ابراهيم.

هـ – " وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " الآية (14) من سورة النحل.

و – " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ " الآية (65) من سورة الحج.

ز – " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " الآية (164) من سورة البقرة.

ح – " وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ " الآية 80 من سورة النحل.

ط – " وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ " الآية (81) من سورة النحل.

****

كل هذه الآيات التي استشهدنا بها وآيات أخرى لم نذكرها تعدد موارد الحياة الطبيعية التي جعلت منها العناية الإلهية مصادر وقاية وحماية ورزق وفير . فالإساءة إليها هي إساءة للحياة التي أمرنا الله سبحانه وتعالى بالحفاظ عليها وهددنا بالعذاب الشديد إن نحن تصرفنا تصرفاً يضع العراقيل أمامها أو يقضي عليها.

كيف نحمي هذه الموارد الطبيعية ؟

الواقع أن وحي السماء لم يقتصر على تعداد الكثير من مصادر النعم ولم يكتف بأن يبين لنا أهميتها والدور العظيم الذي تقوم به بل جاوز ذلك إلى تعليمنا من حماية هذه المصادر والدفاع عنها لتبقى ضمانة طيبة لحياة جيلنا والأجيال القادمة كما كانت ضمانة لحياة الأجيال الماضية.

لقد علمنا أن التعامل مع هذه المصادر يجب أن يتم في ضوء سنن وقوانين جعل الله عز وجل منها ضمانة لاستمرار هذه المصادر نعماً طيبة للحياة .. وأكد لنا أن هذه السنن لا تقبل تغييراً ولا تبديلاً ألا بأمر منه. وما دام أن الوجود قائم فهذا يعني أن السنن والقوانين التي ينتظم بها هذا الوجود قائمة أيضاً . قال عزّ مِن قائل : " سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا " الآية (62) من سورة الأحزاب. " اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا " الآية (43) من سورة فاطر . " قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ ".. الآية (137) من سورة آل عمران.

أما السبيل الى اكتشاف هذه السنن والتعامل مع البيئتين المكانية والزمانية بواسطتها فهي في تقليب النظر في أشيائهما والتفكر في أسرارها ومحاولة اكتشاف كيفية بدء الخلق . قال عزّ مِن قائل : " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " الآية (20) من سورة العنكبوت.

ويترتب على هذا التوجيه أن تكون الاستعانة بالملكات التي منحتنا إياها العناية الإلهية واجباً مفروضاً علينا. وهذا يعني أن التفكر في كيفية بدء الخلق وتقليب الوجه في السماوات التي تسبح فيها النجوم والكواكب ثم التصرف بحيث لا يكون أي تعارض مع سلامة هذه المصادر داخل في مفهوم العبادة.

ولئن تذكرنا بأن الموجودات كلها بما فيها أرواحنا هي أمانات مودعة بين أيدينا ، فقد وجب أن نعمل بحيث نحافظ على سلامة هذه الأمانات ثم نردها الى مالكها الحقيقي الذي هو الله عز وجل سليمة من الأذى.

ويترتب على هذا المبدأ أن سوء التعامل مع هذه المصادر هو خيانة للأمانة والمقصود من سوء التعامل هو أي إفساد نسببه لها أو أي عقبة نضعها أمامها بحيث يتعذر عليها أن تؤدي المهمة التي وكلت اليها.

حدود الفساد وأبعاده

ومن الطبيعي أن قدرات الإنسان المفسد لا تبلغ كل مصادر الحياة وموارد الطبيعة . فالإنسان مثلاً لا يستطيع أن يغير مسارات النجوم والكواكب ، كما لا يستطيع أن يطفىء ضياء الشمس أو نور القمر ،ولكنه يستطيع أن يحدث الفساد فيما يتصل به مباشرة من تراب الأرض ، ومن النبات ، والحيوان، والمياه وهي الموارد القريبة التي عددناها من قبل ، والتي تحدث الوحي السماوي عنها في تفصيل دقيق . ولمّا كان إفساد هذه الموارد المباشرة تحت أي مبرر مصدراً لإفساد الحياة والأحياء فإنّ من الطبيعي أن يكون المقصود من حماية البيئة المكانية بالذات هو حماية ما يمكن أن يتعرض للفساد من أشيائها بواسطة الإنسان.

واستطراءاً للبحث في هذه الظاهرة ، ولما كان الزمان والمكان جزئين متلازمين في صنع الحياة الكريمة فقد وجب أن نقرر في ضوء تعاليم القرآن الكريم بأن الفساد يمكن أن يتناول البيئة المكانية عبر إفساد البيئة الزمانية .

وقد يستغرب بعضنا هذا الربط بين الفسادين . لكننا حين نعلم أن السلوك العملي مع أشياء الأرض مرتبط بحسن فهمنا لدوافع النجاح والفشل ، أو الفوز والخسارة في أخلاق الشعوب ، وحين نعلم أن التاريخ الذي هو علم تربوي نتعلم منه فنون الحياة عند الشعوب القديمة وأن صورة هذا التاريخ تنعكس على أخلاق الأجيال الحاضرة واللاحقة .

والوقائع شاهدة على وجود هذه العلاقة بين البيئتين الزمانية والمكانية . إن التعليم الذي يوهم الأجيال الحاضرة بأنها تنتسب إلى أجداد غير صالحين، أو الذي يعجز عن إبراز مواضع العبرة والعظة في وقائع الماضين ، لا يقتصر على حرمان هذه الأجيال من العلم الإيجابي البناء بل يعمل على تثبيط همتها وتشويه حقيقتها وتغذية يأسها من تحقيق أي نجاح في التعامل مع هذه الموارد.

وهذا يعني توكيداً لما ذكرناه من قبل من وحدة الحياة وتكامل قدراتها وملكاتها المادية والأدبية . وهذه رؤية يستقل بها القرآن الكريم . وهو ما نفهمه من كتاب الله حين يقول للرسول صلى الله عليه وسلم في بيانه للحكمة من إيراد قصص الأولين السابقين من سكان الأرض : " وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ" من الآية 120 من سورة هود.. هكذا تربط الآية بين قصص الأنبياء السابقين وبين عملية تثبيت الفؤاد أي عملية إدخال الطمأنينة والحض على الاستمرار في العمل الصالح.

هكذا نكون قد استوعبنا أبعاد الفساد كاملة وتبينا حدوده في البيئتين المكانية والزمانية. وأدركنا حقيقة دينية إسلامية رائعة هي حقيقة إعلان الوحدة والتكامل بين الفكر والمواقف الخلقية من جانب والسلوك العملي من جانب آخر . فليس في الإسلام فصل بين شؤون الدنيا المادية وشؤون الروح كما يزعم أصحاب الفكر العلماني. بل فيه تقرير لتلاحم الجانبين وتوكيد أن أحدهما لا يستقيم أمره إلا بالآخر.

إنّ التعامل السليم مع الكون والطبيعة والحياة المادية هو عبادة كما هو التعامل مع شؤون الروح إنّ صح هذا التعبير .

فالمسلم يعبد الله حين يفكر جيداً .. وحين يعمل جيداً .. وحين يحسن استصلاح الأرض .. وحين يحسن الحفاظ على موارد المياه سليمة من الأذى .. وحين يمهد الطريق أمام السابلة .. وحين يرفع القواعد من البناء .. وحين يبني المصانع .. ويؤسس المتاجر تماماً كما يعبد الله حين يصلي ويصوم ويحج ويسدد ما عليه من واجب الزكاة والصدقات . والإفساد في العمل هو إفساد في العبادة كما يكون الإفساد في الصلاة والصوم وغيرهما من العبادات المفروضة.

عودة إلى تفصيل الموارد القريبة من الإنسان

1) الأرض

إن التقييم السليم لكل مورد من الموارد الطبيعية المباشرة للإنسان والتي يمكن أن تتعرض للإفساد ضرورة أساسية نستبين بفضلها درجة اهتمام الوحي السماوي بسلامة هذه الموارد. فكلما زاد الاهتمام بتفصيل كل منها ارتفعت أهميته واستبانت قدسيته وتعينت خطورة الحفاظ عليه.

ولما كانت الأرض بسهولها وجبالها ووديانها هي المكان الوحيد الذي يجد فيه الإنسان موطئاً لقدميه ومكاناً لسكنه ومصدراً أساسياً لرزقه وميداناً يصنع فيه كل أشياء حياته ويعبر فيه عن أنشطته ويحقق فيه أحلامه وأطماحه فقد وجب أن يكون الحفاظ على سلامة هذه الأرض والامتناع عن إفسادها حصيلة معرفة معضلة بالدور الذي تقوم به والخدمة التي تقدمها في ضوء ما جاء في كتاب الله .

فماذا جاء في كتاب الله حول الأرض :

1) الأرض فراش ممهد للإنسان يفترشه سعياً إلى الأمن والراحة ويستند إليه في كل نشاط يصدر عنه. قال عزّ مِن قائل : " الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً .. " من الآية 22 من سورة البقرة .

2) الأرض تحيا بماء السماء . وحياتها شرط لاستمرار حياة الإنسان بالطبع . قال تبارك وتعالى : " وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ .." من الآية (164) من سورة البقرة .

3) والأرض هي الموطن الذي يمارس فيه الإنسان مسؤولية الخلافة التي أعده الله لها . جاء في الكتاب العزيز قوله : " وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ .. " من الآية (165) من سورة الأنعام .

وهذا يعني أنه لا مبرر لوجود الإنسان دون الأرض . فاستمرار استخلافه مشروط باستمرار الأرض وصلاحيتها لبقائه .

4) والأرض مصدر أساسي للمعايش . ففيها يرتفع الشجر المثمر والنباتات على اختلافها، وفي أرجائها يعيش الحيوان الذي يتغذى الإنسان بلحمه، وفيها المياه الصالحة للشرب . قال عزّ مِن قائل : " وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ " الآية (10) من سورة الأعراف.

5) والأرض ليست موطناً وسكناً ومصدر معايش وميداناً للحياة فقط بل هي أيضاً المادة التي خلق الإنسان منها. فقد خلق الإنسان من طين وفي تعبير آخر من (حمأ مسنون) أو من (صلصال كالفخار)، فأهميتها هي في أنها مصدر لنشوء الكائن الإنساني . كما أنها في الوقت نفسه المكان الذي يتم فوقه الإعمار . قال عزّ مِن قائل : " هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. " من الآية 61 من سورة هود.

6) ويبسط الوحي السماوي حديثه عن الأرض بأن يبدىء ويعيد في وصف بعض ما تتميز به . فهو يتحدث عن النبات مختلف الألوان وعن الخضرة التي يحدثها ماء السماء ثم يفصل الإشارة إلى هذه الألوان فيذكر على سبيل المثال جنات النخيل والأعناب . يقول عز من قائل : " وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ " من الآية 13 من سورة النحل .. " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ " الآية (63) من سورة الحج .. "وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ(33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ(34) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ(35)سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36)". سورة يس.

فالأرض التي جعلت للناس فراشاً ، والأرض التي تحيا بماء السماء ، والأرض التي هي موطن الخلافة ، والأرض التي هي مصدر أساسي للمعايش ، والأرض التي خلق منها الإنسان ، وأخيراً الأرض التي تخرج النبات مختلفاً ألوانه بفضل ماء السماء ... هذه الأرض هي القطاع الأساسي للبيئة المكانية وهي التي وضعت أمانة بين يدي الإنسان ثم طلب إليه أن يسهر على سلامتها من التلوث وأن يعي الوظيفة التي تقوم بها . إذ لا يستقيم شكرنا للنعم على نعمه ما لم نحافظ على سلامة هذه النعم ونعمل على توفير الظروف التي تسمح باستمرار الدور الذي تقوم به .

****

وقد لا ينتبه بعضنا للأبعاد الكاملة لظاهرة التلوث فيتصور أن هذا التلوث يتصل فقط بإفساد الجو الذي يحيط بالأرض أو يتجسد في مواد كيماوية تخرجها المصانع ، وبتعبير آخر قد يتصور بعضنا أن التلوث هو حصيلة عوامل مادية وحسب . لكن النص القرآني الكريم يلمح إلى ملوثات من نوع خاص تتصل بالجانب الأدبي أيضاً.

والمقصود بالجانب الأدبي توفير الظروف السياسية والاجتماعية والتربوية التي تحض القادرين على العمل على استصلاح الأرض الموات وإحيائها بحرثها وزرعها وصيانة هذا الزرع حتى يبلغ حصاده.

وقد يستغرب بعضنا ربط هذا الجانب الأدبي بموضوع التلوث لكننا حين نتذكر أن المقصود من التلويث هو الحيلولة دون أن تكون الأرض صالحة للعطاء فإنّ كل سلوك يثبط همم العاملين ويدفعهم إلى هجرة الأرض بالتضييق عليهم أو إنزال الظلم بهم أو حرمان أصحاب الحقوق من حصادها هو أشبه ما يكون بالتلوث لأنه يحدث النتيجة التي يحدثها التلوث المادي . يقول عز وجل في محكم تنزيله : " وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " الآية (141) من سورة الأنعام.. فالوحي السماوي هنا يربط بين إيتاء حق الثمار يوم حصادها وبين عطاء الأرض لهذه الأثمار . أي أنه بهذا الربط يخبرنا بأن استمرار الأرض في عطائها مشروط بالعدل الاجتماعي والتعاون بين الناس .

والثابت أن السنة الشريفة قد تحدثت عن هذه الظاهرة على طريقتها الخاصة بما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا ضرر ولا ضرار ". فالشريعة ترفض إحداث أي ضرر يصيب الإنسان به نفسه أو يصيب به غيره . ولمّا كان إهمال الأرض وإبقاؤها مواتاً أو إحداث ما يجعلها مواتاً بأي وسيلة من الوسائل هو إضرار بالنفس وبالآخرين ، فهو بالتالي كفر بنعم الله وتخلف عن شكره عليها . كما يدخل في هذا المعنى قوله عليه السلام " لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً". لأن الترويع هو أقصر طريق إلى تجميد الإنتاج البشري وبالتالي إلى زرع اليأس في النفوس وتثبيط الهمم عن العمل المنتج في الأرض.

ولعل خير ما يشير الإنسان الى الأرض ويدفعه إلى العمل فيها والانضواء في بنية المجتمع النشيط البناء هو ربط فكرة العمل بعقيدة تهيمن على صاحبها وتدفعه إلى الاستجابة لكل ما يصدر عنها من التعاليم فيأتمر بما تأمره به وينتهي عما تنهاه عنه . وهذا هو الذي يفسر إلحاح الوحي السماوي على ربط كل الأنشطة الأدبية والمادية عند المسلم بعقيدة

الوحدانية التي تلعب دور السراج المنير في الليالي المظلمة والطاقة الدافعة إلى الحركة في الأرض الوعرة المزروعة بالعقبات .

وفي ضوء هذا المعنى ورد قوله عز وجل تمجيداً للعمل والعاملين دون تحديد لنوع العمل ومكانه : " وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ "الآية (105) من سورة التوبة .

وقد لا نبعد عن روح الموضوع المتصل بإحياء الأرض حين نستشهد بقوله صلى الله عليه وسلم " إنّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه " وعلى ذلك فإنّ إتقان العمل في الأرض يدخل في مفهوم الأحياء ويتصل به كل جهد يحول دون تحقق هذا الإتقان الذي هو بعض مؤشرات النجاح في صيانة الأرض والحفاظ على لياقتها في العطاء المثمر.

2) الماء

لكن العمل المثمر في الأرض لا يتحقق ما لم يتجسد في كل ما تحتاج الأرض إليه من أسباب الحياة . ولا شك أن الماء هو أهم ما تحتاج الأرض إليه . فإذا حرمت منه فقد حرمت من حق الحياة. وليس أدلّ على ذلك من أن الحضارات البشرية كلها قد نشأت في أحواض الأنهار أي في الأرض التي تسقيها مياه الأنهار ، وليست الصحارى المجدبة التي لا تصلح لحياة البشر كما لا تصلح لحياة الحيوان والنبات غير أرض محرومة من الماء .

ولو أننا ألقينا نظرة كاشفة فيما يجري الآن فوق التراب الوطني للمملكة العربية السعودية وتتبعنا الجهود المبذولة لبناء السدود المائية عند مداخل بعض الوديان وهي كثيرة جداً في المملكة ثم الجهود المبذولة لقلب الأرض فيها كتمهيد للإفادة من مياه السدود لتبين لنا أن أسباب الحياة التي ترتفع منها القواعد في مناطق كثيرة تعود كلها إلى وجود المياه الصالحة لسقي الأرض.

والثابت بطلان ما يقال من أن الصحارى مجدبة لأنها لا تصلح للإنبات فقد تحدث بينوا ميشان في كتابه " ولادة مملكة " عن تقارير وضعتها لجان من الخبراء الزراعيين أثبتت في فترة مبكرة من هذا القرن بأن في القطاع الصحراوي من الجزيرة العربية مناطق واسعة جداً صالحة للإنبات شرط حصولها على الماء العذب، وأن هذه المناطق لا تقل مساحتها عن نيف

وأربعة ملايين من الهكتارات أي ما يساوي أكثر من عشرة ملايين فدان . فالصحراء ليست أرضاً مجدبة بذاتها بل أن جدبها هو ثمرة حرمانها من الماء . فلا حضارة دون أرض مزروعة .. ولا أرض مزروعة دون ماء .. ولا ماء ما لم تجد السماء بحاجة الأرض والناس منه .. وإذا قلنا لا حضارة فقد قلنا لا حياة منتجة بناءة على نحو من الأنحاء .

وعلى ذلك فنحن لا نستغرب أن يمن الله على عباده بما ينزله عليهم من ماء السماء الذي يهبط إلى الأرض نقياً قادراً على توفير أسباب الحياة للأرض والحيوان والإنسان.

ومن نعم الله على الأرض والحيوان والإنسان أن الماء الذي ينزل من السماء رحمة من الله بعباده إنما ينزل بقدر معلوم بحيث يستجيب لحاجات البشر إن هم أحسنوا الإفادة منه . أي إن هم صانوا مجاريه وحفظوه وراء سدود محكمة وحالوا دون أن يصب في مياه البحار والمحيطات.

والواقع أن نزول الماء بقدر معلوم يعني أنه لا يندر بحيث يعجز عن إحياء الأرض ولا يزيد بحيث يغرق الأرض . فالعجز عن إحياء الأرض يحدث الجفاف والموت للأحياء وأغراق الأرض بالماء يتلف الأرض ونباتها ويعريها من ترابها المخصب . لكن نزوله بقدر معلوم لا يحقق الغرض منه ما لم يستجب الإنسان لدعوة الله له للعمل وما لم يحافظ بالطبع على صلاحية هذا الماء ويحميه من التلوث.

هذا هو القرآن الكريم يحدثنا حديث الماء ويذكر النعم الإلهية التي تنتج عن نزوله من السماء فيقول عز وجل : " هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ(10) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11)" سورة النحل.

فإذا صدر عن الإنسان ما يلوث هذا الماء فقد حرم نفسه من نعمة أساسية هي عماد حياته. والتلويث اليوم قد يكون بانتشار أخطار الانفجارات الذرية في الفضاء وقد يكون باختلاط نفايات الصناعات السامة بالمياه في مجاري الأنهار .. والدنيا كلها تعلم اليوم أن الاستهتار في حماية المجاري المائية من نفايات المفاعلات الذرية والمياه التي تستخدم فيها هو مصدر كبير من مصادر التلويث، وهو عامل من العوامل التي دفعت وتدفع جمعيات حماية البيئة إلى مقاومته وتوعية الناس بأخطاره .

****

والآية القرآنية التي أوردناها قبل قليل تتحدث بصراحة عن أن المياه النازلة من السحاب الممطر هي للشرب كما هي لإنبات الزروع . فإذا أفسدها الإنسان فقد حارب نعمة من نعم الله الكثيرة وتصرف تصرف غير الشاكرين .

****

ثم يمضي وحي السماء فيحدثنا عن قطاع آخر من المياه هو قطاع البحار والمحيطات . ويخبرنا بأن هذه وتلك قد خلقت لحماية حياة البشر ولتوفير الطعام لهم . فإذا صدر عن الإنسان ما يودي بحياة حيوان البحار والمحيطات فقد اقترف جريمة التلويث.

والجدير بالذكر أن خبراء التلوث قد رفعوا الصوت عالياً منذ زمن غير قصير يحذرون به الناس من أخطار النفايات التي تلفظها المصانع المقامة عند شواطىء الأنهار . والحديث عن نهر الرين والأخطار التي يتعرض لها بسبب ما تصبه هذه المصانع من النفايات السامة أشهر من أن يعرف . فقد ذكر هؤلاء الخبراء بأن سمك السلومون في نهر الرين قد مات كله أو أكثره بسبب النفايات التي تصب فيه من كل جانب. وما يحدث في نهر الرين يحدث أيضاً في كل أنهار العالم التي تصب فيها هذه النفايات ولا سيما في الدول الصناعية.

والتنكر لنعمة الله عز وجل لا يقف عند تعامل الإنسان السيء مع الأنهار وحسب بل يظهر أيضاً في تعامله مع البحار والمحيطات التي تستقبل في كل يوم عشرات الألوف من أطنان النفايات، إمّا من السفن الماخرة فيها وإمّا من المجاري التي تصب عند شواطئها مما يهدد حياة الحيوان فيها بخطر الموت.

وقد كثر الحديث عن مادة الزئبق السامة التى تصب في مياه اليابان خارجة من مصانعها والتي سببت وتسبب تسمم حيوانات البحر ثم انتقال هذا السم إلى البشر الذين يقتاتون من لحوم هذه الحيوانات.

والله عز وجل يخبرنا أن من الأغراض التي سخر لها ماء البحار والمحيطات توفير اللحم الطري للإنسان من حيوانها قال عز من قائل : " وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ." الآية 12 من سورة النحل (16).

ولعل أحداً لا ينسى ما تحدثه ناقلات النفط التي تنفجر في البحار وتغرق ، من الأخطار الرهيبة حين تنتشر في مياهها مئات الألوف من أطنان النفط القاتل للحياة .

****

ويتكرر الحديث عن نعم الله المتمثلة في المياه النازلة من السماء في مناسبات كثيرة بقصد توعية الإنسان بأهمية هذه المياه وخطورة دور الإحياء الذي تقوم به وبالتالي بأهمية الحفاظ على نقاوتها وتجنيبها كل أنواع التلوث. وفيما يلي نورد مختارات من الآيات الكريمة الخاصة بموضوع المياه ، قال تبارك وتعالى:

1) " وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ " الآية (22) من سورة الحجر.

2) " وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30)أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا (31)وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32)مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (33)" من سورة النازعات.

3) " وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ الْسَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ "الآية (65) من سورة النحل.

إنّ كلام الله تعالى أحاط بأهم الأغراض المقصودة من نزول مياه السماء بقدر معلوم توفيراً لأسباب الحياة وحماية للأرض من خطر الجفاف والغرق، وحذر عباده تحذيراً شديداً من الفساد في الأرض بكل أنواعه، وحض على العمل بحيث يستمر صلاحها وطلب إلى عباده أن يتوجهوا إليه بالدعاء خوفاً من عذابه وطمعاً في استمرار رحمته بهم فقال عزّ مِن قائل : " وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ " الآية (56) من سورة الأعراف .

****

وإذا كان الإسلام قد قرر أن الأرض لمن يحييها ويحافظ على سلامتها واستمرار عطائها فقد طرح مبدأ آخر هو حق الناس كلهم في الإفادة من المياه . فالمياه نعمة مباحة للجميع شرط أن يحافظوا على سلامتها من كل تلوث وأن يحموها من كل نجس . وقد تقررت إباحة المياه لكل الناس إلى جانب إباحة الكلأ والنار على اعتبار أن هذه الموارد الثلاثة تمثل حاجات أساسية لا غنى للناس عنها . يقول صلى الله عليه وسلم : " الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلأ والنار ".

وقد قرر الفقهاء هذه الإباحة، منهم الكاساني والسرخسي الذي ذكر في "كتاب الشرب " من مؤلَّفه : " أنه إذا كان لرجل نهر أو بئر أو قناة فليس له أن يمنع ابن السبيل أن يستقي منها فيشرب ويسقي دابته وبعيره وشياهه".

ويترتب على تلويث المياه إسقاط حقوق الناس فيها وتضييع ما أعده الله تعالى لهم ومكنهم منه .

****

3) الأشجار والنباتات

الأشجار والنباتات مختلفة الأنواع هي ظلال ممدودة ،وحطام موفور ، وتطهير للهواء من بعض ملوثاته . فلو خلت الأرض من ظلال الأشجار والنباتات لعانى الإنسان من خلوها كثيراً من المتاعب. ولو عقمت الأشجار والنباتات فلم تعد تؤتي ثمرها أو حصادها لتعرض الناس للحرمان من جزء كبير من الطعام .ولو قطعت الأشجار والنباتات لتعرض الهواء الذي يتنفسه الناس للكثير من الفساد. وهذا يعني عدواناً على حق الناس في الحياة التي هي منحة من الله عز وجل لا يحق لإنسان مهما عظم شأنه أن يحرمهم منها.

لنعد أولاً الى كتاب الله عز وجل لنستبين هذه المعاني فيه. قال تبارك وتعالى : " أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا " الآية (45) من سورة الفرقان.

هنا يمنُّ الله على عباده أنه يمد الظل لهم إعلاناً عن أهمية هذا الظل وخطورة الدور الذي يقوم به . وفي وسعنا أن نتصور عظمة هذه النعمة الإلهية حين نستظل بظل شجرة بعد أن نتعرض لحرارة الشمس اللاهبة في يوم من أيام الصيف وبصورة خاصة في الصحراء .

ومما يلفت النظر أن الله عز وجل قد كرر الإشارة إلى أهمية الظلال ودورها الخطير في توفير الراحة والهناءة للبشر . فتحدث عنها لا باعتبارها نعمة من نعم الدنيا وحسب بل باعتبارها نعمة من نعم الآخرة أيضاً.

فهو يقارن بين نقيضين ويؤكد عدم استوائهما فيقول تبارك وتعالى : " وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19)وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (20)وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (21)وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (22)" سورة فاطر.

أي أنه عز وجل جعل للظلال فضلاً كفضل البصر والنور . كما جعل الحرور مشابهاً للعمى والظلمات.

فإذا وصف لنا بعض نعم الجنة قال تبارك وتعالى : " فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (28)وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (29)وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (30)وَمَاء مَّسْكُوبٍ(31) " سورة الواقعة.

وإذا تحدث عما يصيبه أصحاب الجنة من الخير قال : " وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً " الآية (57) من سورة النساء.

وإذا ما عدنا إلى وصف ما يجري في الجنة نقرأ قوله عزّ مِن قائل :

- " مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا .. " الآية (35) من سورة الرعد.
- " هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ " الآية (56) من سورة يس.
- " وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا " الآية (14) من سورة الإنسان.

ويعدد تبارك وتعالى نعمه على الإنسان فيقول عزّ مِن قائل : " وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً .. " الآية 81 من سورة النحل.. ويقول أيضاً : " أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ "الآية (48) من سورة النحل.

أوَليس في هذه الآيات بيان كاف للدور المعجز الذي تقوم به الظلال في حياة الناس ؟ أوَلا يترتب على هذا أن من يمنع الحياة عن الأشجار والنباتات التي يتوفر بها الظل إنّما يرتكب جريمة في حق الناس ويتنكر لنعمة من نعم الله؟ أوَليس أن التلويث الذي يحول دون سلامة الأشجار والنباتات هو مصدر من مصادر القضاء على الظل وحرمان الناس منه ؟

****

فإذا انتقلنا الى دور الأشجار والنباتات في توفير الكثير من الطعام لعباد الله وجدنا في القرآن الكريم ما يفصّل بعض مصادر الرزق في الأشجار والنباتات . أما عن النخيل والأعناب فيقول تبارك وتعالى : " وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67)وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ

الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68)ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(69) " سورة النحل ..

ثم يشير إلى أنواع أخرى من الجنان والحبوب فيقول عزّ مِن قائل : " وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9)وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (10)رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11)" سورة (ق) ..

ويعود كتاب الله إلى هذا الموضوع في آيات كثيرة لا سبيل إلى إيرادها .. لكنها كلها تتفق في الحديث عن النعم المتوفرة في الأشجار والنباتات بأنواعها الكثيرة . ويترتب بالطبع على التنويه بهذه النعم أن كل عدوان عليها هو عدوان على خلق الله عز وجل وكفر بنعمته وتجاهل للخير الذي يقدمه لعباده . والعدوان على هذه النعم يتحقق فيما يتحقق فيه بالملوثات التي تنتج عن سوء التصرف أو الأنانية أو الاستهتار بحقوق الناس.

على أن حرمان الناس من هذه النعم لا يكون فقط بحرمانهم من الثمرات والمحاصيل المختلفة بل يكون أيضاً بحرمانهم من النعم غير المباشرة التي لا تتوفر إلا بوجود هذه المحاصيل والثمرات . فالنحل الذي يصنع عسله بما يمتصه من رحيق الأزهار وعصارات بعض الثمرات لا يعود قادراً على ممارسة دوره وتوفير العسل لمن يحتاجون إليه ، لا سيما وأن في العسل شفاء للناس بالإضافة إلى كونه مادة مغذية لهم.

ولا ننسى بالإضافة إلى ما سبق أن بعض الثمرات والنباتات يوفر الغذاء لأنواع من الحيوان الذي أحل للناس أن يأكلوا لحمه . فإذا حرمنا هذا الحيوان ، لسبب من الأسباب ، من التغذي بهذه النباتات والثمرات فقد حرمنا الإنسان من مصدر من مصادر غذائه وتنكرنا لفضل الله وأعرضنا عن الشكر الواجب له عز وجل.

وخلاصة القول في موضوع الأشجار والنباتات أنه تبارك وتعالى قد خلق هذه النباتات وتلك الأشجار بمثل الإتقان والإحسان اللذين حققهما في خلقه لأرفع مخلوقاته. والثابت أن لكل مخلوق من هذه المخلوقات قوانين وسنناً وحاجات وأوضاعاً هي مطالب أساسية له ليمارس بها وجوده . فكما أن الإنسان في حاجة إلى الهواء النقي والطعام الجيد والفراش الصحي والسكن المناسب ليحيا حياة طيبة فكذلك النباتات والأشجار تحتاج إلى الأرض الصالحة والمناخ المناسب والخدمة المثمرة التي تستعين بالخبرات العلمية بحيث تبقى صالحة لأداء دورها في حياة الإنسان.

أما أن الأشجار والنباتات قد خلقت على خير صورة من صور الخلق وفي حدود الغرض منها تماماً كما خلق الإنسان فنجد ما يصدقه في قوله عز وجل : " الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ " الآية (7) من سورة السجدة .

و "كُلَّ شَيْءٍ" هنا تعني كل المخلوقات دون استثناء . والإحسان في خلق الأشياء هو أن تكون الصورة الخلقية لكل شيء متطابقة تماماً مع صورة المهمة التي تقوم بها والفائدة التي تستفاد منها. فإذا تصرف الإنسان تصرفاً لا يحتفظ للأشجار والنباتات بدورها الذي خلقت للقيام به فقد أفسد ، أي عطل مهمتها، وبالتالي أساء إلى الصورة العامة للخلق الذي رتب الله عز وجل أجزاءه وربط بعضها ببعض بحيث تتحقق المصلحة العامة . وهل هناك ما هو أشد جرأة على الله وتجاهلاً لأوامره ونواهيه من إفساد الصورة التي منحها لخلقه وإشاعة الاضطراب وإيجاد الثغرات في بنية الكون أو الطبيعة أو الحياة ؟

والثابت أن الإنسان المفسد هو الذي يدفع ثمن إفساده في النهاية مهما طال الزمن . ذلك لأن القوانين والسنن التي وصفتها العناية الإلهية والتي علمنا وحي السماء أنها لا تقبل تبديلاً ولا تحويلاً إلا بإرادة خالقها، نقول : إنّ هذه القوانين والسنن تنتزع الغلبة في النهاية وتهزم الإنسان مهما فكر وقدر واستعان بشهوات نفسه وبأدوات ذكائه في حماية نفسه منها . إن الطبيعة لا تغالب أبداً . فتقطيع الأشجار والنباتات يفتح الباب واسعاً أمام رمال الصحراء السافية .. والانصراف عن العناية بها يحرم الإنسان من ثمرها وحصادها .. واستخدام المبيدات السامة في غير تقدير حكيم يعرضه للجوع أو على الأقل لسوء التغذية.

وعندما نتذكر أن أعظم ما يطمح إليه العلم الحديث هو اكتشاف قوانين الطبيعة والحياة من أجل الإفادة من خيراتها ونعمها فإنّ كل محاولة نستخدم فيها العلم لمقاومة هذه القوانين مكتوب عليها الفشل والهزيمة المرة .

****

ولو أننا عدنا بالذاكرة إلى الوراء واستعنا بوثائق التاريخ لدراسة قصة الحضارات التى سادت ثم بادت لتبين لنا أن الفساد الناجم عن الإهمال أو الأنانية أو الحقد أو الفوضى أو غيرها من الخبائث هو وحده الذي يفسر انهيار هذه

الحضارات ويقدم لنا صورة للأسباب الحقيقية التي حرمت الأرض خضرتها .. والغابات أشجارها ... والأهوية نقاءها والأخلاق سلامتها والأعمال البناءة فرصها .

ومما يدعو الى التأمل والتدبر ويكشف لنا عن دور الوعي الخلقي في الحفاظ على سلامة الأرض والمياه والأشجار والنباتات أن العالم المعاصر الذي تحققت له انجازات تكنولوجية لا سابقة لها في التاريخ وبنى بها المصانع العملاقة وتغلب بها على المسافات وغزا بها أجواء الفضاء واكتشف بفضلها أسراراً دقيقة للحياة كانت مغيبة عن الأجيال الماضية ، ورفع بها القواعد من الأبنية الشامخة ووفر بفضلها ثروات لا تحصى وأسباباً من الرفاهية لا تستقصى ، نقول : إنّ هذا العالم المعاصر الذي تحقق له هذا كله كشف عن غياب روح المسؤولية عنده بحيث تبين لكل ذي بصر وبصيرة أن احتمالات القضاء على ما أنجزه قوية جداً . فهو لا يتردد أبداً في تطوير كل كشف علمي تطبيقي بغض النظر عن انعكاساته السيئة في واقع الحياة . والمثل على ذلك كشوفه في ميدان الفيزياء الذرية التي انتهت به إلى بناء المفاعلات لصنع القنابل الذرية والهيدروجينية والافتنان في صنع الأسلحة التي يسبب بها الموت والدمار والتبذير في إنفاق الأموال بغير حساب على هذه السلع في الوقت الذي يزداد فيه انتشار الجفاف الصحراوي وتشتد الحاجة إلى الطعام عند مئات الملايين من أطفال العالم ثم لا يتردد في إشعال الحروب ترويجاً لصناعة الأسلحة عنده وفي حرمان شعوب كثيرة من الأيدي العاملة ، بسبب هذه الحروب ، وفي تدبير المؤامرات لحرمان الدول الصغيرة من فرص التقدم والازدهار ، وفي تفجير القنابل الذرية والهيدروجينية دون مبالاة بالتلويث الذي تحدثه هذه الانفجارات لكل من الأرض والمياه والأشجار والنباتات.

ولئن زعم صانعو هذه الجرائم بأن ما لاحظناه غير صحيح فكيف يفسرون لنا الحروب الأقليمية الرهيبة التي تعاقبت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فتوقفت بها حركة الحياة ومسيرة الازدهار في أكثر من قارة واحدة ؟ هل أن هذه الحروب التي تحدث الخراب وتفسد الأرض ، هي من صنع ضحاياها أم هي من صنع الذين يملكون التكنولوجيا ويسيطرون على ثروات العالم ؟

على أن الفساد في الأرض الذي يشيع الخراب ويحدث التلويث ويحرم الملايين من فرص العناية بمصادر أرزاقهم لا يقف في تأثيره المميت عند الأرض والمياه والأشجار والنباتات وحسب بل يجاوزها إلى الحيوان أيضاً .

الحيـوان

وقبل أن نتحدث عن دور التلوث في عالم الحيوان ونستبين التعاليم الإسلامية الهادفة إلى حماية هذا العالم من أسباب الدمار يجب أن نتذكر حقيقة خلقية هامة طالما لفتت انتباهنا وكشفت عن جميل صنع الله وكماله . خلاصتها أن الخلق وحدة متكاملة الأجزاء ،وأجزاؤها هذه مترابطة ترابطاً عضوياً لا ينفك بعضها عن بعض ولا يحتفظ بعضها بسلامته إلا بفضل سلامة بعضها الآخر .

أن أقل واقعة تقع في أي مكان من الأرض أو من فضائها لا تلبث أن تحدث آثارها في غيرها من الواقعات .. فإذا كانت حسنة ظهر حسنها في غيرها واذا كانت سيئة تردد سوءها في غيرها أيضاً .

والتصرف الوحيد المطلوب للحفاظ على وحدة الخلق المتكامل الأجزاء هو الذي يهدف إلى حماية التوازن بينها. والمقصود بالتوازن هنا هو التعامل مع كل المخلوقات الجامدة والنباتية والحيوانية والإنسانية على الصورة التي خرجت بها من بين يدي الله عز وجل . فليس شيء من المخلوقات قد خلق عبثاً .. وليس في ظاهرة من ظاهرات الوجود أي دور للصدفة .. وكلما زاد إدراكنا لأبعاد هذا التوازن زادت فرصنا في الحفاظ على سلامة المخلوقات التي نتعامل معها هذا إذا التزمنا لشروط هذا التوازن ووقفنا عندها .

****

والواقع أن الحيوان هو جزء هام من أجزاء الخلق كلهم . ولا نستثني نوعاً من أنواعه . فلكل منها دوره في صنع الحياة والحفاظ على السلامة.

والمثل على ذلك أن المبيدات الحشرية حين تستخدم بغير علم في إبادة الحشرية حين تستخدم بغير علم في إبادة الحشرات الضارة لا تقتل هذه الحشرات وحسب بل تقتل الحشرات النافعة أيضاً . وهذا هو الذي يفسد كل قطاع من حياة الحيوان توازنه.

إن التقدم العلمي كما هو معروف يتم بصورة عشوائية فإذا استخدمت كشوفه بالصورة نفسها كان الفساد الذي يتعارض مع ظاهرة التوازن في الخلق . ولذلك فإنّ تدخل الإنسان في ضوء الحفاظ على التوازن ومراقبته بدقة هو الذي يحول دون استشراء هذا الفساد ويجنب الحياة والأحياء أخطاره.

والدليل على ذلك التقدم الفيزيائي الذي صنعت في ضوئه الأسلحة الذرية . فإذا استخدمت هذه الأسلحة بصورة عشوائية ، وهو ما يحدث اليوم ، كان الفساد الذي يهدد التوازن في الخلق . والوعي الحضاري هو وحده يحد من تطوير هذا السلاح الذي تملك الدول الذرية منه كمية كافية لتدمير الكرة الأرضية مرات كثيرة.

والإسلام بفضل عقيدته وتعاليمه يضع الكوابح أمام سياسة التسلح الذري عن المعسكرات الدولية الكبيرة . ولما كنا بصدد الحديث عن الحيوان والتلوث في نظر الإسلام فلنبحث عن موقف الإسلام من هذا القطاع الهام .

الحيوان والصيد

أول ما يلفت النظر في العلاقة التي يقررها الإسلام بين الإنسان والحيوان أنه قد أباح الصيد . ولكن هذه الإباحة لا تعني القضاء على جنس الحيوان الذي أبيح صيده . ولو أننا فتحنا الباب واسعاً أمام الصيادين الهواة لحرمنا البشرية من المنافع التي تتمثل في هذا النوع من الحيوان.

والحيوان الذي يباح صيده هو الطير في السماء .. ثم الحيوانات البرية التي يؤكل لحمها أو التي يستفاد من شعرها وجلدها وعظامها . فإذا لم نضع حداً لهواة الصيد قضي على طير السماء وفنيت حيوانات البر .. ولذلك فإنّ الصيد المباح يجب أن يكون مشروطا بخطة الحفاظ على البيئة الحيوانية بحيث تبقى للأجيال التالية مصدراً مستمراً للحم المأكول أو للشعر والجلد والعظام التي تستخدم لأغراض نافعة.

قال تبارك وتعالى في محكم تنزيله : " وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ " الآية (2) من سورة المائدة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الصيد لمن أخذه " (أنظر السرخسي – كتاب الصيد).

وقال عز من قائل : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ "الآية (94) من سورة المائدة .

وقال عز وجل في محكم تنزيله : " يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ" الآية (4) من سورة المائدة .

هذه النصوص الثابتة تؤكد كلها حلّ الصيد . لكن هذا الحل مشروط بمبدأ أساسي من مبادىء الشريعة يقرره قوله صلى الله عليه وسلم " لا ضرر ولا ضرار " فإذا كان الغرض من الصيد هو مجرد المتعة والتلذذ بقتل الحيوان فهو في رأي الأئمة من الفقهاء مكروه كراهية شديدة وفي مقدمتهم مالك وابن حنبل والكاساني وغيرهم.

ولما كان التحريم أو الكراهية يقاسان بمقياس الضرر الحاصل من الفعل المحرم أو المكروه فإنّ من الطبيعي أن يحرم قتل الصيد عندما لا تكون حاجة ماسة للانتفاع بلحمه أو شعره أو جلده وعظامه ولا سيما إذا هدد الصيد بالقضاء على الحيوان المصيد وكان سبباً لحرمان الناس من الانتفاع به. فشكر هذه النعمة "التي هي الحيوان " يكون بالحفاظ على توازن الطبيعة التي خلقها الله عز وجل رحمة بالإنسان وتوفيراً لأسباب عيشه.

وما يصدق على صيد حيوان البر يصدق أيضاً على طير السماء . فإنّ من الطيور ما يقدم للإنسان خدمة كبيرة حين يلتهم الحشرات الضارة في نباتاته وأشجاره . فالقضاء على هذا الطير هو بالتالي قضاء على التوازن أي قضاء على منفعة الإنسان من هذا التوازن .

الحيوان والتلوث

وكما يكره الصيد حين يهدد بإبادة حيوان البر والطير دون أي مبرر غير المتعة واللذة في القتل كما هو رأي الفقهاء فإنّ تلويث الجو بالأشعة القاتلة التي تطلقها القنابل الذرية حين تنفجر .. كما أن تسميم الأعشاب التي يقتات بها بعض الحيوان بفعل الانفجارات الذرية، وصب نفايات المصانع في البحار القاتلة لحيوان هذه البحار مصدران من مصادر الخطر الوبيل الذي يتعرض له توازن الطبيعة والحياة، وبالتالي تتعرض له سلامة الإنسان ومصالحه الأساسية . وهذا كله يندرج تحت القاعدة الشرعية الأساسية المقررة بقوله صلى الله عليه وسلم " لا ضرر ولا ضرار ".

يضاف إلى ما سبق التلوث الذي تحدثه الصناعات العصرية بسبب الأدخنة الخارجة منها أو الأشعة القاتلة التي تتسرب من المفاعلات الذرية . والتحريم كما قلنا أو الكراهية يقاسان بمقدار الضرر الناجم عنهما.

صحيح أن من حق الإنسان بل من واجبه أن يسير في الأرض وأن ينظر في كيفية مبدأ الخلق . لكن هذا الواجب مشروط كما قلنا غير مرة بالتزامات خلقية وروادع أدبية تفرضها العقيدة الحنيفية غايتها الحفاظ على توازن الطبيعة والحياة.

****

إن المشكلة الحضارية الكبرى التي لم يستطع إنسان هذا العصر أن يضع لها حلاً وأن يتغلب على صعوباتها هي مشكلة الحد من غرور الإنسان بعد أن كشف بعض أسرار الكون والحياة . فهو يستخدم هذه الأسرار متأثراً بنزعات السيطرة خاضعاً لشهوات التحكم فيمن لم يوفق إلى اكتشاف ما اكتشفه.

لقد بدأ كشوفه العلمية تقصيراً للمسافات ومكافحة للأمراض ومقاومة للفقر وسعياً إلى رفع مستوى العيش. لكنه لم يلبث وقد فتحت له الطبيعة بعض أبوابها واسعة حتى جاوز حدود ما كان يقصد إلى تحقيقه في البداية . فهو يختزن الطاقة .. ويجمع الثروات .. ويغزو الفضاء .. ويضاعف السرعة في الانتقال لا لأغراض إنسانية بل انسياقاً وراء غرور القوة والثراء وشهوات التحكم وانتهاب اللذات وحرمان غيره من نعم الله في الأرض .

لقد فقد الإنسان في حضارة هذا العصر مزيداً من وعيه بحق غيره في الحياة الكريمة أي فقد مفهوم التوازن الذي يشمل كل شيء وكل قيمة خلقية . ومن الطبيعي أن يترتب على فقدانه لتوازنه الداخلي فقدان التوازن في علاقته بالناس والحيوان والنبات والجماد أيضا.

وكل هذا يعني أن الحضارة كما رسمتها لنا دعوة الإسلام ليست حضارة القوة الناجمة عن المعرفة وحسب بل هي أولا وبالذات حضارة الأخلاق التي تضبطها وتوجهها عقيدة الوحدانية والتعاليم النابعة منها.

حرية العلم والعمل والعلاقات الإنسانية

لا شك أن الحرية حق للإنسان بعامة وللمسلم بخاصة. وقد تقررت هذه الحرية على مستوى العقيدة بقوله عز وجل : " لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. " من الآية (256) من سورة البقرة. ولما كانت الحرية تعبيراً عن كرامة الإنسان على الله فقد علمنا القرآن أن الإنسان كائن مكرم ومفضل على كثير ممن خلق الله من خلقه. تبدو هذه الحقيقة متمثلة في بعض الآيات، منها ما عبر عنها بصورة مباشرة كما في قوله عز وجل : " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ

وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً " الآية (70) من سورة الإسراء . ومنها ما عبر عنها بصورة غير مباشرة كما في قوله عز وجل على لسان إبليس : " قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً " الآية (62) من سورة الإسراء .كما في رواية القرآن ابتداء من الآية 30 من سورة البقرة ، لقصة خلق آدم عليه السلام ، فهي تحدثنا عن امتياز هذا المخلوق وكيف أن الله طلب من الملائكة أن تسجد له تعبيراً عن كرامته عليه عز وجل .

لكن هذه الحرية والكرامة المترتبة عليها مشروطتان بحمل الأمانة التي حملها الإنسان . وحمل الأمانة يعني الالتزام لها والإحساس بالمسؤولية نحوها. يدخل في ذلك أولاً الإيمان بخالقه، كما يدخل بعد ذلك العمل بالتعاليم النابعة من هذا الإيمان وفي مقدمته هذه التعاليم الخاصة بالتعامل مع الناس، أي أن يتصرف بحيث لا يسبب ضرراً لغيره وإساءة إليه في حريته وراحة نفسه وحقه في العيش الكريم والإفادة من نعم الله عز وجل.

فالله لم يخلق نعمه المتمثلة في كل مخلوقاته المسخرة للإنسان لمصلحة فرد بعينه مهما علا مقامه بل خلق هذه النعم لكل الناس ونظم الطريقة العملية التي يتم بها توزيع هذه النعم وتيسير السبيل إليها.

فحرمان الآخرين من العمل المشروع هو إضرار بهم .. وإغلاق باب المعرفة أمامهم هو إضرار بهم .. وتجاهل مسؤولية الأسرة هو إضرار بأفرادها .. وأكل مال الناس بغير حق إضرار بهم .. وتلويث الأرض وكل ما عليها مما ينتفع به الناس إضرار بهم .. وتشجيع الفساد في الأرض إضرار بالناس .. وتحريم ما أحل الله للناس أو تحليل ما حرم عليهم إضرار بهم ..

إن من حق الإنسان أن يعمل شرط أن يكون تصرفه بما تحت يده كتصرف راكب السفينة الذي يحتفظ بسلامة مكانه لا من أجله هو وحسب بل من أجل الذين يشاركون في ركوب هذه السفينة .

****

والجدير بالذكر أن القرآن الكريم قد فصل القول في تعيين طبيعة العلاقة بين الناس عامة وتعيين العلاقة بين المسلمين خاصة . أما فيما بين الناس فقد قال عز وجل : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " الآية 13 من سورة الحجرات.

فالعلاقة الواجبة بين الناس هي علاقة تعارف . والغرض من التعارف هو تبادل الفهم وتنسيق المصالح دون عدوان، لأن الناس كلهم سواء فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، أي بالإلتزام لخطة التعارف واحترام إنسانية الإنسان.

****

ولمّا كان من الممكن أن تتعارض مصالح الفرد مع مصالح الجماعة فمن الطبيعي أن يؤمر الفرد بتنسيق مصلحته مع مصلحة الجماعة . فإذا تعذر عليه ذلك ، والتعذر هنا لا يكون إلا في تصرف غير مشروع ، فقد وجب أن تقدم مصلحة الجماعة على مصلحته دون أن يتعرض لظلم . والمقرر في أصول الفقه الإسلامي أن كل حق فردي مشوب بحق الغير وليس لذي حق خيرة في إسقاط حق الغير، بل اعتبره علماء الأصول " حق الله " في كل حق فردي .

وعندما نعلم أن الإنسان مستخلف على الأرض وأن الملك لله وحده ، وأن من حق الناس جميعاً أن ينتفعوا بهذا الملك في ضوء شريعة تنظم علاقاتهم بعضهم بعضاً ، فإنّ من الطبيعي جداً أن يكون حق الفرد مشروط بشروط تحفظ للجماعة حقوقها أيضاً.

صحيح أن من حق الإنسان أن يتصرف حراً داخل بيته لكنه حين يحدث في بيته من الضجيج ما يؤذي جاره فهو يتصرف بغير حقه ... وحين يقرر الإنسان أن يلقي في بئر له في أرضه نفايات الخدمة في بيته وهي نفايات قذرة وقد تكون سامة فإنّه يتصرف في غير حقه لأن هذه النفايات قد تتسرب إلى آبار جيرانه، وحين يرفع بناء بيته بحيث يطل على جاره ويطلع على أسرار بيته فهو يتصرف بغير حقه.

ويبدو حق الجماعة على الفرد في التعاليم الإسلامية حتى في شؤون صغيرة جداً. فإلقاء الأتربة على طريق السابلة مهما تكن الأسباب هو عدوان على حق الجماعة . وقد كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على الاهتمام بحق الجماعة في سلامة الطريق مثلاً حين قال : " وإماطة الأذى عن الطريق صدقة ".

أما فيما يتعلق بعلاقة المسلم مع المسلم فالتوصية برعاية حقوق الجماعة الإسلامية أكثر ظهوراً . قال الله عز وجل في محكم تنزيله : " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ " الآية (10) من سورة الحجرات.

وقال صلى الله عليه وسلم : " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى".. "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ".. " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ".

هكذا يستبين لنا أن للجماعة المسلمة حقاً على الفرد المسلم فلا يجوز له أن يسيء إليها بقول أو فعل بطريق مباشر أو غير مباشر . وكل ضرر يلحق بغيره بسبب من تصرفه فهو ضامن لحق هذا الغير.

وفي وسعنا أن نعرف أهمية الغير في مفهوم الشريعة الإسلامية – والجماعة هي المقصودة بالغير – عندما نستعرض الأساليب التي تستعين بها الشريعة الغراء في تدعيم دور الجماعة وتثبيت حقها على الفرد.

فقد تقرر في شريعتنا الإسلامية أن الصلاة جماعة أفضل من صلاة الفرد وحده .. وكلما زادت مشاركة الجماعة في العبادة زاد فضل هذه العبادة عند الله عز وجل. ومن هنا اعتبرت العبادة في البيت الحرام أفضل العبادات حيث يأتي العابدون والعابدات من أنحاء العالم الإسلامي ليشهدوا منافع لهم وليذكروا اسم الله في أيام معدودات . ولا ننسى فضل صلاة الجمعة لأنها تنعقد بوجود جماعة من الناس .

أما فيما يتعلق بالحدود الموقعة على القاتل والزاني والسارق فهي في الحقيقة دفاع عن سلامة الجماعة الإسلامية. ذلك لأن العقوبات الموقعة لا تعود على الله عز وجل بأي فائدة فهو غني عن العالمين .. غني عنهم في كل شيء فلا يناله منهم غير التقوى ، أي غير الطاعة في العمل بما يأمرهم به وينهاهم عنه رحمة بهم ودفعاً للشر عنهم.

ولما كانت الجماعة متميزة من الفرد مع الحفاظ على حقه كاملاً في حرية الفكر والقول والعمل وفي حدود ما قررته الشريعة له فإنّ من الطبيعي أن يكون التزام الفرد المسلم نحو الجماعة الإسلامية أخطر شأناً من التزامه للجماعة غير الإسلامية.

حق الجار

ولما كان الالتزام نحو الجماعة بسبب من ضرورة الحفاظ على السلامة المشتركة ، فإنّ أهمية هذه السلامة تزداد بازدياد التواصل المباشر بين المسلم وجاره.

وقد عبر القرآن الكريم عن أهمية الجوار في آية بينة محكمة جاء فيها قوله تبارك وتعالى : " وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا " الآية (36) من سورة النساء.

فحق الجار على جاره موصول بحقوق أخرى تبدأ بحق الله على عباده في أن يشهدوا له بالربوبية.

كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال مؤكداً أهمية الجوار وحق الجار على جاره : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره".. وفي حديث آخر روي عنه عليه السلام قوله : " ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه ".. وفي حديث ثالث يروى قوله صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه ".

وقد تبسط علماء المسلمين وفقهاؤهم في تبيين أهمية الجوار وإبراز الالتزامات المتبادلة بين الجيران تبسطاً كشف عن عظيم اهتمام الشريعة الإسلامية بواجبات الجار وحقوقه . يقول أبو حامد الغزالي : الجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام، فيستحق الجار المسلم ما يستحق كل مسلم وزيادة . فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : " الجيران ثلاثة ، جار له حق واحد وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق. فالجار الذي له ثلاثة حقوق هو الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم . وأما الذي له حقان فهو الجار المسلم غير ذي القربى فإنّ له حق الإسلام وحق الجوار . وأما الذي له حق واحد فهو الجار المشرك".

ومما يدخل في هذا المعنى مفهوم الرعاية المسؤولة الموكلة إلى كل مسلم ومسلمة . يعبر عن هذا المعنى قوله عليه السلام : "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته".

والرعية هنا تعني كلّ ما يقع تحت يد الراعي من شيء أو حيوان أو إنسان. فالرعاية المسؤولة هي رعاية للأرض ، ورعاية للحيوان ، ورعاية لواجب الإعمار ، ورعاية لحقوق الناس ولا سيما حقوق الجيران الذين يصيبهم من هذه الرعاية قدر أكبر مما يصيب البعيدين عنها .

وقد عبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن المفهوم الواسع لهذه الرعاية المسؤولة تعبيرا جعل قدرها بقدر المكانة التي يشغلها الراعي من رعيته حين قال ما معناه : " لو أن ناقة أصيبت في أقصى الجزيرة لاعتبرت نفسي مسؤولاً عنها أمام الله عز وجل".

أفلا يعني هذا كله أن كل سوء يصيب الجار في أرضه أو بيته أو زرعه أو طريقه أو نفسه بسبب تصرفات جاره هو مسؤولية يحاسب عليها صاحبها ؟ أوَلا يدخل في هذا المفهوم كل تلويث يسببه الجار على أي نحو من الأنحاء ؟

****

وخلاصة القول في أغراض الشريعة الإسلامية أنها تهدف الى صيانة مصالح الناس وحماية حقوقهم من أن يعدو عليها أي عاد. والحقوق والمصالح هذه تتجسد في الصحة والمال والعرض والدين والعمل والنسل.

والحقوق والمصالح المذكورة تكون على درجات من الأهمية، منها ما هو في حكم الضروريات ومنها ما هو في حكم الحاجات . والحاجات بدورها على درجات تتفاوت أهميتها بتفاوت الفائدة التي تحققها لأصحابها.

فالحفاظ على الحياة والصحة يدخل في المصالح الضرورية .. والحفاظ على كل ما يجمل الحياة ويكملها أو يسبب البهجة والسعادة لأصحابها يدخل في نطاق الحاجات المتفاوتة في أهميتها.

وهذا هو السر في أن الأحكام التكليفية قد تنوعت وتفاوتت بين فرض واجب وسنة مؤكدة ونوافل تطوعية ثم الكراهية التنزيهية فالكراهية التحريمية فالمباحات.

والجدير بالذكر أن هذه الأحكام تتعين بالنصوص المحكمة البينة تارة وبالاجتهاد المستند إلى الفكر السليم تارة أخرى . والاجتهاد المستند إلى الفكر السليم هو الذي يستعين بالقياس أو يستضيء بالمصالح المرسلة .

والاستعانة بالقياس قاعدة شرعية متبعة فيما لم يرد فيه نص صريح من قرآن أو سنة صحيحة . أما المصالح المرسلة فهي مشروطة بشروط محددة تجنباً لاختلاطها بالأهواء الشخصية والنزعات الفردية. وهي :

1) أن تكون المصلحة مصلحة حقيقية ، بحيث يكون في الحكم الخاص بها منفعة حقيقية للناس.

2) أن تكون المصلحة عامة لا خاصة لأن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة.

3) أن تكون هذه المصلحة متفقة مع مقاصد الشريعة وهي الحفاظ على حقوق الناس في صحتهم وأعراضهم وأموالهم وراحتهم وأنسالهم إلخ ..

4) ألا يكون في نصوص الشريعة ما يلغي هذه المصلحة لرجحان مصلحة عامة أخرى عليها.

****

في ضوء هذه الشروط نستطيع أن نتعرف الى موقف الشريعة الإسلامية من كل إجراء يتخذ ، ومن كل سلوك يصدر عن الفرد أو الجماعة ، ومن كل حكم يوضع في ضوء نص محكم . أو بالاستناد إلى قياس ما لم يرد فيه نص على ما ورد فيه نص صريح أو بالاستعانة بالمصالح المرسلة ضمن الشروط المذكورة أعلاه.

ومن البديهي أن يكون أي ضرر واقع على الفرد أو الجماعة من مثل ضرر التلويث بأنواعه ومطارحه كلها بصورة مباشرة أو غير مباشرة هو مما ترفضه الشريعة الإسلامية وتطالب بمقاومته والضرب على أيدي من يسببه أو يساعد على تسببيه . وكل قانون يصدر لمقاومة هذا التلويث وحماية البيئية من أضراره المادية أو الصحية هو في حقيقته حكم دنيوي أخوي نابع من روح الإسلام ملتزم لمقاصده الحقيقية له جزاؤه في الدنيا وفي الآخرة . وهذا يعني أنه ليس حكماً مفروضاً من قبل جهة تحاول أن تحل محل الله عز وجل في التشريع للناس بل هو حكم إلهي مستند إلى موقف الشريعة من مقاومة أي نوع من أنواع العدوان وإلى ما قرره حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : "لا ضرر ولا ضرار ".

الإسلام والشمول في مفهوم البيـئة

جاء في حديث نبوي شريف قوله صلى الله عليه وسلم : " النظافة من الإيمان " وفيه يقرر النبي عليه السلام تلك العلاقة الوثيقة بين الإيمان والنظافة . يكفي أن نستعرض الظروف التي يفرض فيها الاغتسال على المؤمن أو يسن فيها ؟، بالإضافة إلى حالات الوضوء التي ترافق كل منها وقتاً أو أكثر من أوقات الصلاة . والغسل في الإسلام ليس موقوفاً على الأحياء وحسب بل ينسحب أيضاً على الأموات إذ لا يخفى بأن الشريعة تشترط غسل جثة الميت وتكفينها بأثواب نظيفة قبل أن توسد في مكانها من التراب.

والواقع أننا قد تخفى علينا الحكمة من غسل الميت قبل دفنه وهو الذي ستنتن جثته بادىء الأمر ثم تتحول إلى تراب ولكن فرض الغسل يبدو لنا في الإسلام تقريراً لمبدأ أساسي ترتكز إليه القيم الحضارية لمجتمعاته. نعني بذلك أن النظافة هي جزء من المقومات الأساسية للحضارة الإسلامية.

****

وبهذه المناسبة أذكر أن أحد المهتمين بقضايا العالم الإسلامي ومعتقداته من الفرنسيين كان قد ارتجل تعليقاً على محاضرة له ألقيتها في قاعة من قاعات معهد الدراسات الشرقية التابع لجامعة السوربون في باريس ، قد قال فيما قاله : " حاولت أن أضع تعريفاً لحضارة الإسلام فانتهى بي المطاف إلى وضع التعريف التالي : " إن الإسلام هو حضارة النظافة " ثم تابع يقول : " هو حضارة النظافة لأن التنظيف بالماء النقي الطاهر شرط لكل العبادات فيه . ولأن التنظيف الجزئي أو الكلي مشروط بظروف خاصة عديدة معروفة عند العارفين بالشريعة الإسلامية . فالصلاة اليومية مشروطة بالوضوء وقراءة القرآن مشروطة بالوضوء . أما الاغتسال الشامل فهو مشروط أيضاً في حالات عديدة تتراوح بين الفرض والسنة. فالرجل حين يواقع زوجته يجب أن يغتسل وزوجته من الجنابة ... والاحتلام يشترط الغسل أيضاً .. كما يسن الاغتسال استعدادا لأداء صلاة الجمعة .

وينهي المعلق الفرنسي كلامه قائلا : " من الضروري أن يكون المسلم نظيفاً جدا ليله ونهاره حين يكون ملتزماً بأوامر شريعته مؤدياً لعباداته أيضاً على عقيدته الدينية" . وهكذا يربط هذا المحاضر ظاهرة النظافة في الإسلام برؤية حضارية شاملة على أن أبعاد النظافة عند المسلم المتحضر أي الملتزم يتعاليمه الدينية ، لا تقف عند طهارة الجسد وحسب. بل تتجاوزها إلى نظافة البيئة التي تحيط به، فالمياه لا تكون عند المسلم نظيفة صالحة للوضوء أو الغسل ما لم تكن نقية من الأقذار مبرأة من القاذورات فلا يخالطها ما يغير لونها ولا يمازجها ما يغير طعمها كما يجب أن تكون مياه جارية لأن المياه الراكدة لا بد أن تأسن فيتغير لونها وطعمها فلا تعود صالحة للوضوء أو الغسل.

ويضاف إلى ما سبق أن النظافة شرط أساسي للأرض التي تؤدى عليها الصلاة . أي الصلاة لا تصح ما لم تؤد فوق تربة نظيفة من القاذورات على أنواعها . وأخيراً لا ننسى النظافة المطلوبة ما بين الجسد والماء والتراب وهي نظافة الثياب .

والجدير بالذكر أن اشتراط النظافة في الإسلام لا يقف عند ظروفها العادية . فقد أضاف الإسلام إليها بعداً جديداً هو في الحقيقة قمة في مفهوم الحضارة الإنسانية هذا البعد هو الذي نعبر عنه بالأناقة والزينة وحسن المظهر . أوليس أنه عز وجل يقول في محكم تنزيله : " يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (الأعراف: 31) . وهكذا يربط الإسلام ربطاً محكماً بين النظافة والجمال ويقرر أن الجمال الذي عبر عنه بكلمة " زينة " هو امتداد ضروري وحتمي لمفهوم النظافة.

****

والإسلام لم يقتصر على اشتراط النظافة والأناقة عند المسلم . ولم يكتف بإقرارهما وحسب . بل شنّ حملة صريحة على الناس الذين جعلوا من أسباب النسك والزهد لبس الأسمال البالية والتحرج من الالتزام بالأناقة مع النظافة فجاء في القرآن الكريم نوع من الاستفهام الانكاري الشديد لقول من ينادي بتحريم التزين بزينة الله في الأرض. بل فعل أكثر من ذلك حين أنكر على هؤلاء الناس أنفسهم امتناعهم عن تناول الطيبات من الرزق بدعوى التزهد والتنسك. وأعلمهم بأن الزينة في الثياب وفي تناول الطيبات من الطعام قد خلقت للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة . قال عز وجل في الاية 32 من سورة الأعراف " قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ "..

ثم عقّب على المطالبة بالتزين في اللباس والطعام واختيار الأجمل والأمتع والآنق منها بوصف ما لا يليق بالمسلم بل ما يحرم عليه الأخذ به من أنواع القبح والبشاعة حين حصرها في مفهوم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ثم فصل هذه الفواحش بعد ذلك فقال في الآية التالية من السورة نفسها : " قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (33)

وهكذا يكون الإسلام قد طرح موضوع النظافة على أنها ظاهرة شاملة تستوعب الجسد والثياب والأرض اليابسة والمياه من ناحية ،كما تستوعب الجوانب المعنوية والخلقية من ناحية أخرى .. وكأنه يريد أن يضع لمفهوم البيئة تعريفاً شاملاً ينسحب على كل شيء ، على المادة والمعنى، مقرراً تلك العلاقة الطردية بين الجانبين المادي والمعنوي، وهو أقصى ما يعنيه مفهوم الحضارة عند الإنسان. هذه العلاقة الطردية المقررة بين المادة والمعنى هي في الحقيقة طرح لقانون من قوانين الخلق ،

فالنظافة الخلقية بالمعنى الإسلامي تنسحب بطبيعة الحال على النظافة في البيئة الإنسانية المادية كلها، كما أن النظافة المادية للبيئة بالمعنى الإسلامي تنسحب بطبيعتها على الجانب الأدبي ، فإذا لم يحصل هذا التفاعل بين النظافتين كان القصور والتخلف عن مفهوم النظافة في الإسلام .

ولمّا كانت الوحدة في الخلق ظاهرة أساسية في الرؤية الإسلامية فقد حرص الوحي السماوي على إبراز أهمية الزينة والجمال لا على مستوى الأرض وحسب بل على مستوى الكون كله . فالزينة أو الجمال صفة لكل شيء . فها هو كتاب الله يقول : " إنّا زيّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب " الآية 6 من سورة الصافات .

وهذا يعني بالطبع أن الزينة والجمال ليس مطلوباً من الإنسان وحسب بل هو حقيقة كلية كونية تبدو لنا في الليالي الساجيات على صورة ثريات مرشوشة في الفضاء الواسع من حولنا جاءت بها العناية الإلهية لكي تعلمنا أن مسؤولية الإنسان نحو جسده وبيئته في الأرض اليابسة والمياه والثياب والطعام والأخلاق ليست وقفاً تمليه وحسب بل هي حقيقة كونية أيضاً يتعلم منها هذا الإنسان من التزين ويحاول أن يقلدها في كل أمره. ولا ننسى هنا أن كل ما سخره الله للإنسان متميز بالجمال حتى أنه عز وجل تحدث عن أشياء الزينة فيما خلقه من دابه الأرض فقرر أن بعض هذه الدواب لا يوفر للإنسان خدمات معينة فقط بل هو بالإضافة إلى ذلك زينة يتزين بها فقال في الآية 8 من سورة النحل : " وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8) ".هكذا ينسحب مفهوم الجمال وما يشترطه توفير هذا الجمال من النظافة على ما يدبّ في الأرض من الدواب.

****

يبقى أن نقرر حقيقة جمالية اجتماعية استكمالاً لمفهوم الزينة على كل مستوى وفي كل مكان حين قرر القرآن الكريم أن الجمال في الدنيا موجود في شيئين أساسيين يحرص الإنسان على الفوز بهما : المال والبنون. فقال عز وجل : " المال والبنون زينة الحياة الدنيا " . الآية 46 من سورة الكهف.

استراتيجيتان أساسيتان في التعامل النظيف مع البيئة

تحدثنا في غير هذه المقالة عن أزمة البيئة التي بدأت تأخذ بخناق العالم على درجات متفاوتة في الشدة . وتبين لنا أن هذه الشدة تتباين بتباين الوعي البيئي في طول العالم وعرضه. والثابت أن هذه الأزمة لم تعد مجرد ظاهرة متوقعة كما كان الشأن من قبل بل هي حقيقة واقعة .

والجدير بالذكر أننا في غير حاجة للبحث عن أصولها وأسبابها البعيدة في الماضي. ذلك لأنها تعلن عن نفسها في كل يوم، هذا إذا حاولنا حقاً أن نتتبع مظاهرها وآثارها ، فهي حقيقة واقعة يغذيها الطمع والاستهتار والتجاهل عند الإنسان . ولا شك أن الخروج من هذه الأزمة والتوصّل إلى حل سليم لها يفرضان علينا التعامل مع الجوانب التي أشرنا اليها من الطبيعة الإنسانية .

الاستراتيجية الدينية في التعامل مع البيئة

إننا حين نستند إلى الاعتبارات السابقة نجد أنفسنا على الأقل أمام استراتيجيتين متميزتين تتولى كل منهما على طريقتها مهمة التعامل الصحي مع البيئة.

أما الاستراتيجية الأولى فإننا يمكن أن نطلق عليها إسم " الاستراتيجية اللاهوتية " .ويترتب عليها– إذ أصبح ما يدّعيه الأستاذ هوايت من أن جذور الأزمة هي جذور دينية – أن يكون الحل المطلوب لها هو الحل الديني ايضاً . وتبعاً لما ورد في كتابات الأستاذ هوايت نجد أن بعض اللاهوتيين من المسيحيين في الغرب راح يتخذ خطوات ايجابية باتجاه تغذية وعي بيئي نابع من التعاليم الدينية . والدليل على ذلك أن الكاهن البرسبيتيري فريدريك ألدر قد أصدر كتاباً بعنوان " أزمة في جنة عدن " عام 1970م . وقد طرح ألدر في هذا الكتاب استراتيجية لاهوتيه يستهدف بها وضع حلول ايجابية للأزمة البيئية . وتتضمن هذه الاستراتيجية المقترحة التوكيد على إبراز المقاطع الواردة في الكتاب المقدس ، والتي تهدف الى خلق التناسق بين الإنسان والطبيعة وبالتالي تسليط الأضواء على المبادىء الخاصة بتحمل المسؤولية كما تنص عليها الكتابات المقدسة . وخلاصة ما جاء في كتاب ألدر نداء موجه إلى العالم المسيحي بخاصة وإلى البشرية بصورة عامة باتخاذ المزيد من التنسك القائم على العفة والاعتدال واحترام الحياة (ص 145) . هذه الاستراتيجية تتطلب جهداً كبيراً مبذولاً من قبل

الكنائس ورجال اللاهوت . والأهم من هذا كله أن النداء يتضمن الدعوة الى إحداث تغيرات فعالة في قطاعات واسعة من المجتمعات المسيحية بالاستناد إلى قناعات دينية وخلقية ومعنوية.

والجدير بالذكر أن العالم الإسلامي قد شعر بأهمية الحاجة إلى توعية المجتمعات الاسلامية بدور البيئة الصحية السليمة في الحفاظ على سلامة الحياة . وقد صدرت في هذا المعنى كتابات حول هذا الموضوع حاول مؤلفوها تسليط الضوء على الدور الذي تقوم به الشريعة الإسلامية في الحفاظ على سلامة البيئة . وقد اشتركت شخصياً في إعداد بحوث خاصة صدرت عن المملكة العربية السعودية كما أعددت رسالة إضافية حول هذا الموضوع وضعتها بتصرف المسؤولين عن مجلة البيئة التي أحرر فيها مقالاتي منذ عدد من الشهور . ولا أدري حتى كتابة هذه السطور ما إذا كانت الرسالة قد طرحت ونشرت أم لا . ولكنني أميل إلى الاعتقاد بأنها ستنشر في المستقبل إن لم تكن قد نشرت حتى اليوم .

ولعلي بعد الذي بسطت من الأفكار والشواهد في الكتابات التي أشرت اليها في غير حاجة إلى التبسط في سرد التعاليم الإسلامية الواردة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بعد المقالات التي نشرت في أعداد سابقة من هذه المجلة وبعد الكتابات التي أعددتها من قبل ليتم إخراجها في رسالة مستقلة.

إن أي قارىء واع لكتاب الله ولسنة رسوله لا يلبث أن يكتشف الأهمية الكبرى التي توليها الشريعة الإسلامية لخطة الحفاظ على سلامة الطبيعة والحياة بكل أشكالها وطبقاتها المختلفة بحيث يصبح للحياة الصحية والطبيعية المتوازنة دور خطير في خدمة الحضارة البشرية وتحقيق سعادة الإنسان.

وقد سبق أن أوردت في مقالات سابقة عدداً غير قليل من الآيات الكريمة التي تحض على حسن الإفادة من نعم الله في الأرض والتفكر السليم في خلق السماوات ثم ما بين الأرض والسماوات بالإضافة إلى الحيوانات البحرية والتي يعتبر الحفاظ على سلامتها شرطاً لاستمرار الحياة البشرية صحيحة معافاة.

الاستراتيجية البيئية

يقول خبير البيئة الأميركي الأستاذ ريتشارد.ت.رايت : " هناك استراتيجية أخرى يمكن أن نطلق عليها اسم " الاستراتيجية البيئية " والغرض منها هو الدعوة بصورة أكثر مباشرة مع وقائع الوجود وحقائقه . نذكر منها : الحرص على البقاء وحق الإنسان في التمتع ببيئة نظيفة وصحية.

الرسالة هنا بيئية محض .. ويترتب عليها دور الإنسان في التأثير على ما يحيط به من أشياء الطبيعة والحياة باعتباره جزءاً من الطبيعة والكائنات الحية نفسها وبالتالي باعتبار حياته مرتبطة بغيرها من الكائنات العضوية . والوسيلة الى تحقيق هذه الاستراتيجية هي التربية وحسب . وهذا يعني أن التفكير البيئي يجب أن يشيع وينتشر في المراحل التربوية كلها ، ابتداء من مرحلة الروضة وانتهاء بالمرحلة الدراسية الأخيرة . يضاف إلى ذلك وجوب استخدام الصحف اليومية والمجلات الدورية والإذاعات السمعية والمرئية كوسائل توعية دائمة للجمهور . هذه الاستراتيجية يمكن أن تسمح بالقيام بحملات مباشرة ضد الاستغلال غير المحدود وسوء استخدام البيئة . ولعلنا في غير حاجة إلى القول بأن الاستغلال غير المحدود هو حصيلة الطمع عند الأفراد والمؤسسات ، وعلى ذلك فإنّ الحملات المضادة لهذا النوع من الاستغلال لابد وأن تعمل على توعية من يملكون تلك البيئة المستغلة . أما سوء الاستخدام للبيئة فإنه يجب أن يقابل بتنمية الوعي بأساليب الاستخدام السليم والصحي . والنجاح في هذه المحاولات يستند إلى الافتراض الذي يرى بأن الناس حين يستوعبون المبادىء الأساسية لعلم البيئة وحين يوفقون إلى إدراك ما تتعرض له البيئات المحيطة بهم من تغيرات تسيء اليها وبالتالي تسيء إلى الناس الذين يعيشون فيها فيقتنع هؤلاء بأن السلوك السليم يعود عليهم بالفائدة ، فإنهم من ثم يصبحون على قناعة تامة بأن حماية البيئة هي في مصلحتهم وبالتالي هي صيانة للظروف والعوامل الصحية في حياتهم اليومية.

والجدير بالذكر أن الاستاذ رايت ، الذي أشرنا اليه آنفا ، يرى بأن الاستراتجية الأكثر صلاحاً في الحفاظ على البيئة هي الاستراتيجية الثانية أي الاستراتيجية التربوية . ذلك أنها كما يقول ، تتجاوز في تأثيرها الأبعاد الدينية والاجتماعية والحدود العنصرية بحيث توقظ في النفوس غريزة الحفاظ على الذات.

ويضيف بعد ذلك قوله : " وحتى لو أن الكنائس المسيحية قد اعتمدت الاستراتيجية اللاهوتية في نشاطها الإعلامي ، وهذا غير محتمل إلى حد بعيد ، فإنها تفتقد القدرة على التأثير في نفوس أكثر غير الدينيين من أفراد المجتمع الأميركي . إن في وسع هذه الكنائس أن تلعب دوراً ما في التوعية بحماية البيئة في الأوساط التي لا تزال تتأثر بتعاليمها ومواعظها".

ويتابع الأستاذ رايت قائلاً : " أن استخدام الاستراتيجية اللاهوتية لتحقيق هذا الغرض لا يعني أن اتهامات الذين يحمّلون المسيحية مسؤولية فساد البيئة من مثل الاستاذ ين ماك هرغ وهوايت هي اتهامات دقيقة ، وذلك فقط لأن هناك بعداً لاهوتياً أو روحياً في الحياة عند بعض الناس . وهذا يعني أن هذا البعض لا يزال يتأثر بالتوجيهات الدينية المسيحية . ويترتب على هذا أن تكون الاستراتيجية اللاهوتية عاملاً إضافياً ملحقاً بالاستراتيجية التربوية المستمرة.

****

هذا الرأي الذي يميل إليه الخبراء البيئيون في الغرب إنما يمثل في الحقيقة الواقع الثقافي في العالم الغربي الذي تم به أضعاف دور الكنائس في تشكيل عقول الجماهير . أما بالنسبة لنا نحن في الكويت وفي بقية العالم العربي الاسلامي فإن الاسلام لا يزال يلعب دوراً اساسياً في تشكيل العقول والأفهام عند جماهير المؤمنين. وهذا يعني أن دور الإسلام حين اللجوء إليه دور كبير جداً في حماية البيئة شرط أن تصح العزائم وتتضاعف الجهود لإبراز التعاليم الإسلامية في هذا الصدد .

ورأينا هذا لا يتعارض أبداً مع ضرورة استخدام الاستراتيجية التربوية بل لعل من حسن التدبير أن يتم المزج بين الاستراتيجيتين المذكورتين آنفاً ممّا يسمح بتكثيف الجهود الهادفة الى حماية البيئة بكل أبعادها المادية والأدبية.

****

والواقع أن الاستراتيجية التربوية قد نفذت ولا تزال تنفذ في الكويت بخاصة بوحي من السلطات الحاكمة من ناحية وبالجهود المبذولة من قبل مجلس حماية البيئة والمجلة الصادرة عنه وأجهزة الاعلام المتوفرة في البلاد . وطبيعي أن الناس الذين ينشطون دفاعاً عن البيئة النظيفة في البلاد ولا سيما في الميدانين التربوي والسياسي يشعرون بتزايد الأزمة البيئية وبالتالي يستوعبون في عقولهم خطورة الفساد الذي قد تتعرض له البيئة الكويتية .

إن ظاهرة الحفاظ على سلامة البيئة قد أصبحت قوة فاعلة وستصبح في المستقبل قوة أكثر فعالية دون ريب بفضل التوجيهات المستمرة التي توقظ في النفوس مزيداً من الوعي بمصالح الإنسان باعتباره فرداً أو جماعة .

****

والجدير بالذكر أن أعوام السبعينات العشرة قد اعتبرت أعوام حماية البيئة . وأن جهوداً استثنائية قد بذلت خلال تلك الأعوام لتوجيه الأنظار نحو الأزمة البيئية . وقد بذلت هذه الجهود دون اللجوء إلى الحوافز الدينية والخلقية .

وإننا وإن كنا نعتقد بأن هذه الجهود قد آتت أكلها ، وأثمرت بعض الثمرات إلا أننا باعتبارنا مسلمين في الكويت وغير الكويت نرى أن هذه الجهود كان يمكن أن تحدث تأثيراً أكبر فيما لو ظهر أدب إسلامي نابع من كتاب الله وسنة رسوله ومن تعاليم الشريعة الإسلامية الأخرى خلال تلك السنوات . ذلك لأن الإسلام في عالمنا لا يزال يحتفظ بقدر كبير من الحيوية والفاعلية في النفوس . وكل شيء يدل إلى أن زيادة هذه الحيوية واقعة مرتعبة في المستقبل المنظور.

وبناء على ذلك نجد من واجبنا توجيه دعوة حارة إلى أصحاب العلاقة من رجال الفكر الاسلامي لخلق هذا الأدب البيئي الاسلامي وتنميته في ضوء المعطيات العلمية الحديثة مما يمنح المعطيات العلمية فعالية روحية من ناحية ويضفي على النصوص الاسلامية موضوعية العلم التي لا نحاول أن نقلل من دورها التربوي في العالم الحديث .

****

في ضوء ما سبق أن أثبتناه لا يسعنا أن نقف إلى جانب الزاعمين بأن الأديان ، بما فيها المسيحية ، من وراء أزمات البيئة ، بدعوى أن قصة الخلق التي وردت في الكتب المقدسة قد دفعت بني آدم وشجعته على استخدام أشياء الطبيعة والحياة دون الالتزام بحدود معينة .

وطبيعي أن الخبراء والمفكرين الغربيين هم الذين اختلقوا هذا وجعلوا منه منطلقاً للحملة على المنهج التربوي في الأديان . ولو أن هؤلاء الناس قد فكروا تفكيراً موضوعياً بعد دراسة شاملة للظاهرة الدينية التي تنادي بالوحدانية لأعادوا النظر فيما يطلقونه من الرأي ولوفقوا إلى قراءة التاريخ قراءة وضعية سليمة.

على أننا مؤمنون كل الإيمان بأن هذه الحملة المغرضة لم تضعف من تعلق الناس بالعقيدة الدينية التي تنادي بالوحدانية بل ستدفعهم إلى تعميق رؤيتهم لهذه العقيدة وزيادة استيعابهم للتعاليم الصادرة عنها . ولو فرضنا أن أزمة البيئة قد نشأت جزئياً عن تصرفات بعض المتدينين لوجب أن ندرك من هذه الظاهرة بأن هؤلاء المتدينين لم يستوعبوا التعاليم الدينية الاستيعاب العلمي الموضوعي المطلوب.

والمؤسف أن الاعلام الغربي قد حاول ولا يزال يحاول أن يجعل من الدين ، والمقصود هنا المسيحية ، كبش محرقة ، لكل الأخطاء التي يرتكبها العنصر البشري.

وهنا نسمح لأنفسنا بأن نكرر القول بأن شهوات الناس وأطماعهم وفساد سياساتهم وفقرهم الروحي من وراء كل الكوارث التي تنزل بالبيئة .

وخلاصة القول أن على كل استراتيجية توضع لحل مشكلات البيئة يجب أن تنطلق من قاعدة أن الإنسان بأنانيته المتسلطة عليه والآخذة بخناق الخير في قلبه هي الحقيقة الكبرى التي تفسر ظهور أزمات البيئة . ولذلك يجب أن تستخدم لمقاومة هذه الازمات والتغلب عليها الاستراتيجية الدينية في الأساس على أن تكون كل الأجهزة الاعلامية في خدمة هذا الهدف الصحي الإنساني .. واذا كان الغربيون قد نفضوا كلهم أو بعضهم أيديهم من الدور الديني في العملية التربوية فإننا نحن المسلمين لا نزال بحمد الله وثيقي الصلة بالدين الذي نزل إلينا قرآنا متلواً وسنّة مروية نجد فيه طريق الخلاص ومادة التربية التي لا ينضب وحيها، والضوء الذي نستنير به في ظلمات الجهالة والأنانية والأطماع الفردية والجماعية.

وأخيراً يجب أن نقرر بأن الإنسان، والإنسان وحسب ، هو المسؤول الأول عن تراكم الأزمات ومن بينها أزمة البيئة التي تشكو الدنيا من آثارها المدمرة.

الأولوية للانسان أم للطبيعــة ؟

التناقضات الظاهرية للبيئة البشــرية

مما يلفت النظر في أيامنا الحاضرة أن الأحاديث المتبادلة في كل مكان والمناقشات الجارية بين الفئات المختلفة في الأوساط العلمية تتركز كلها حول المعضلات الهامة لكل من أوضاع الجماعات البشرية وظاهرتي التلويث والتكاثف المكاني.

وهذا يعني أن الأولوية في الأبحاث والمناقشات موقوفة على قضايا المدن الكبيرة وبصورة خاصة الجوانب البشرية منها تلك التي تبرز منها جملة من الأعراض المتزامنة ...

ومن أهم هذه الأعراض فيما تحدده الإحصاءات العلمية نورد ما يلي :

1) التلوث.

2) التكاثف السكاني الذى يتضخم بصورة بالغة التسارع.

3) الندرة في الغذاء.

4) تضاؤل الأراضي الصالحة للزراعة بسبب الزيادة المطردة في عدد السكان.

ولعل من حسن الحظ أن العالم المعاصر لا يزال حتى اليوم قادراً على وضع الحلول المطلوبة لأزمة التلوث ، وهذا يعني أن في وسع هذا العالم أن يقوم بعملية تنظيف المواقع والشبكات الملوثة . لكن العالم إذ يقوم بعملية التنظيف في المدن الكبيرة ، فإنه في الوقت نفسه يتجاهل أو ينبذ بقية جوانب الحياة ، أي أنه حين يهمل من اهتمامات البشرية كل شيء باستثناء حبة القمح والبقرة ، ينزلق باتجاه النهايات السحيقة للإبادة والفناء الذين لا عودة عنهما ، فإن كل أنواع المخلوقات في الواقع تتعرض لظاهرة الانتحار البيئي.

ومهما يكن الأمر فإنه لا شيء في هذا العالم يساعد على تغذية روح التفاؤل في صميم الأزمة البيئية التي تتسع بصورة مطردة . ففيما يتعلق بانهيار النظم البيئية وانطفاء أكثر الأنواع الحيوانية من ناحية، واختفاء العدد الكبير من أنواع النباتات من ناحية أخرى ، تبدو لنا الأعراض الخاصة بهذه وتلك في أفق المستقبل .

فتبعاً لتقديرات الأستاذ تاليوت يتبين لنا أن 3 % من الحيوانات الثدييّة قد بادت عبر الأزمنة التاريخية ، هذا دون أن ندخل في حسابنا ما تعرض للفناء في أزمنة ما قبل التاريخ ، مثل الظبي الإيرلندي أو حيوان الماموت . والجدير بالذكر أن أكثر تلك الحيوانات قد باد خلال الخمسين عاماً الماضية، واليوم يمكن القول بأن 10% إلى 12% معتبرة في حكم المعرضة لخطر الإبادة. وقد استنتج ذلك من خلال دراسات أجريت حول الأنواع الأساسية والأنواع الفرعية التي صنفت على أساس أنها معرضة للخطر.

وقد وردت هذه النسب في " الكتاب الأحمر للمعلومات " الخاصة بالحيوانات الثديية ، والمعروف أن هذا الكتاب قد صدر عن الاتحاد الدولي للحفاظ على الطبيعة ومن المحتمل جداً أن يكون 130 نوعاً من 400 نوعاً من الثدييات في الولايات المتحدة مهددة بالإبادة التامة . والواقع أن حال الطيور ليست أفضل من ذلك ، وهذا وقد قدر الأستاذ ديلون ريبلي من المعهد السميتوني بأن أكثر الأنواع الحيوانية ستتعرض لخطر الإبادة حوالي عام 2000م.

أما الأستاذ كينيت بولدنغ فقد ذكر أنه لا يمكن في جيل قادم من الناحية الاقتصادية الحفاظ على أنواع الحيوانات فيما إذا استمرت حالة التلويث من ناحية وتزايد عدد السكان بالوتيرة الحاضرة من ناحية أخرى، باستثناء ما يدجن منها خارج حدائق الحيوان.

والجدير بالذكر أن القليلين جداً كانوا يتحدثون عن البيئة والطبيعة وأشكال الفراشات في الوادي البيروقي نسبة إلى بيرو في أميركا اللاتينية ، وذئب الغابات وهو يطارد حيوان الرنة في الاسكا، خلال البرامج العديدة التي نظمت منذ وقت غير بعيد في جامعة ميتشغان وفي الجامعة الشمالية الغربية وكذلك خلال ألف أخرى من المعسكرات المنعقدة للدراسة وتبادل المعلومات.

أنت أيتها الفراشة والوردة البرية وأنت أيها الأسد الجبلي وحيوانة الرنة ، وأنت أيها الحوت الأزرق وطائر البجع ، ثم أنت أيتها الصخور المرجانية وأرض البراري – من عساه سيتكلم عنكن ؟ إن حفيدي قد يجد نفسه في حاجة إلى التعرف بكم والنظر إليكم وشمكم ، ثم إلى الاستماع إليكم والاحساس بوجودكم ، ليكون بالتالي ذا حياة لامعة وسعادة وافرة.

على أن فقدان الاهتمام هذا شيء يمكن إدراكه ذلك أن الإنسان الآن يشغل كل جزء من الأرض يتصرف على طريقة الديكتاتور ، يراقب ويفكر أن في وسعه القيام بمراقبة كل الكائنات الحية فيما لو رغب في ذلك . وكما يرى بعضهم ، باستثناء القليل من القبائل البدائية . فإن الإنسان قد قطع كل علاقة له تقريباً وبصورة كلية مع عالم البيئة الذي كان موجوداً قبل أن تنمو ثقافته الخاصة . إن إنسان اليوم لم يعد يشغل المواطن البيئية المناسبة له ، ولكنه يصطنع هذه البيئات على الصورة التي تحلو له ...

ولكن هل أن موروثاتنا "الجينات" لم تعد في حاجة إلى البيئة التي تشكلها ؟ فإذا دمرنا النظم البيئية القائمة والأنواع الحية المختلفة بإهمالها فإن النظم البيئية التي نستحدثها ، والتي نتكيف لها ، وكذلك الأنواع الحية التي لا نزال جاهلين بقيمها الحقيقية ، كما لا نستطيع التنبوء بما سيكون لها من القيم ، فإننا نفصّل ذلك دون ريب على مسؤوليتنا نحن .

وعلى ذلك فإن فقدان التركيز على البيئة الطبيعية من جانب وعلى الحيوانات البرية والنباتات ، ثم على الغابات والمجاري المائية من جانب آخر ، نقول : إن هذا السلوك مصدر خوف كبير بالنسبة لنا.

من عساه يدافع عن الحياة في القفار والبيئة الطبيعية التي تتعرض للتلوث والفساد، تلك التي ننشأ فيها والتي لا نزال في حاجة ماسة إلى نقاوتها التامة ؟ من عساه يقوم بهذه المهمة اللهم عند أقلية من الناس كثيرة الصخب لكن صخبها فاقد لكل فعالية ؟

إن السؤال الكبير الذى يجب أن يوجه هو السؤال التالي :

لمن تكون الأولوية ؟ هل هي للإنسان ؟ ودائماً " للإنسان " على حساب أنواع الحياة الأخرى ؟ وهل صحيح أن الأولوية هي له في واقع الأمر ؟ قد يكون هذا الاعتبار مناسباً في المدى القصير ، لكنه لا يلبث أن يصبح مستحيلاً في المدى الطويل .

والحقيقة أنه لا أمل في بقاء الإنسان صحيحاً معافى ما لم يضع هذا الإنسان نفسه في الدرجة الثانية. ولكي نكون أكثر دقة ، نقول : ما لم يقبل هذا الإنسان بأن يكون تابعاً للطبيعة وأن يضع نفسه في مكانة فيها باعتباره جزءاً من أجزائها ، وما لم يضع الإنسان ، الإنسان في المكانة الأولى هذا التناقض الظاهري الكبير للبيئة البشرية، وما لم ير الإنسان الضوء وأن يخضع نفسه له ، وما لم يقلل من حجمه باعتباره جزءاً من الطبيعة ، وما لم يقبل الاعتراف بأولوية الجمال ، والتنوع ، والتكامل في هذه الطبيعة ، وأن يحدّ من سلطانه ويضع حداً لتكاثر أفراده ، وفي الوقت نفسه وبالقدر ذاته يعطي خطة الحفاظ على سلامة البيئة قيمة أكبر وأعظم كما يعطي مثل ذلك لحياته.

وإذا كان لنا أن نبشر بمجيء عصر ذي منطق بيئي سليم فإن علينا القبول بخطة تتم بها إعادة المجتمع الإنساني على أساس اقتصادى وسياسي من ناحية وكذلك على أساس أخلاقي وثقافي. فلا زيادة في التوسع الاقتصادي ولا زيادة في التوسع الزراعي ، ولا زيادة في التكاثر البشري ولا جديد في بناء سدود غير ضرورية ولا جديد في صناعات غير أساسية ولا جديد في تحقيق تفرعات ثانوية هدامة . إن علينا باختصار شديد أن نحد من انتشارنا في الوقت الحاضر.

لندع جانبا تلك البنى القديمة من أسباب القوة النابعة من تلك الثقافة المتواجدة في الولايات المتحدة الاميركية والتي تتصف في الميدان التكنولوجي بالانتشاء والغرور . وكذلك تلك التي نجدها في الاتحاد السوفياتي واليابان وغيرهما من بلدان العالم، إن علينا أن نصغي وأن نصغي جيدا لرياح التغيير.

إن علينا أن نقبل بالقاعدة التي تقرر بأن الأرض ونسيج الحياة يأتيان أولا وأن الإنسان يجب أن يأتي ثانياً .

أما المنافع وما نطلق عليه اسم " النجاح والتقدم " فيأتي في الدرجة الأخيرة . الإنسان اليوم مسؤول عن مصير كل ذئب بقدر مسؤوليته عن كل طفل . وهو مسؤول عن سلامة البراري والمحيطات بقدر مسؤوليته عن كل ميدان آخر.

ومن الآن فصاعداً يجب أن تكون القوانين التي تحكم الإنسان هي قوانين البيئة . وكذلك القوانين الخاصة بظاهرة التدمير الذاتي وهي ظاهرة الاقتصاد الذي لا تحده حدود. وما تقرره وتقوله قوانين البيئة هو ما يجب أن نرتبط به ، نحن القرود المتنكرة بلباس الانسان ، وهو ما يترتب عليه من مسؤوليتنا عن الحفاظ على نقاوة الهواء ودوام الخضرة، واستمرار الازدهار ، وسلامة الأرض السريعة العطب.

والواقع أن ما تعلمنا إياه البيئة ، وما ترجو منا أن نتعلمه ، هو أن كل الأشياء الحية منها والميتة ، ويدخل في ذلك الإنسان نفسه ، مرتبطة بنسيج الحياة العامة. هذا الاعتبار هو ما يجب أن يكون القاعدة الأساسية لأخلاقياتنا الجديدة.

فإذا كنت يا عزيزي القارىء تحب أطفالك حقاً ، وإذا كنت ترغب صادقاً في إسعادهم ، وإذا كنت تحب الأرض التي تندرج فوقها وتحرص على أن تورثهم إياها جميلة متنوعة الخصائص فاعمل بما تفرضه قوانين الطبيعة بحيث يستطيع هؤلاء الأطفال والأحفاد أن يعيشوا عبر عشرة آلاف سنة منذ اليوم في عالم يتصف بالتنوع والجمال ، وأن يجدوا المتعة والفرح في كونهم كائنات حية .

****

البيئة الزمانيــة

المقصود بالبيئة الزمانية ما اتفق الناس على تسميته باسم (التاريخ). وقد يستغرب القارىء لدراسة تتعلق بالبيئة في بعدها المكاني أن تتعرض لموضوع هو أوثق ما يكون صلة بالماضي القرب أو البعيد . لكنه لا يلبث أن يجد في إلحاقها بموضوع البيئة المكانية ضرورة لا غنى عنها حين يستبين العلاقة الوثيقة بين صورة الماضي في نفوس الناس وليبيّن البيئة الطبيعية والبشرية التي يتعاملون معها.

لقد كان التاريخ قبل عصر الدعوة الإسلامية مجرد حكايات تختلط فيها الأسطورة بالوقائع اليقينية . وكان الإقبال على تسجيل الحوادث الماضية حصيلة عصبيات قومية تقصد إلى تمجيد الآلهة التي تمثل مصالح أصحاب هذه العصبيات واعتزازهم بها . والتحيز في الحكايات المروية هو النتيجة الطبيعية لوجود تلك العصبيات . أما الجانب الأخلاقي في رواية التاريخ والذي تختفي معه العصبيات فلم يظهر بصورة واضحة حاسمة إلا مع نزول القرآن الكريم.

****

فالقرآن كما يتبين لكل ذي بصيرة لا يحدّث الناس عما جرى في الماضي ، ولا يروي قصص الأنبياء والرسل الذين حملوا الى أقوامهم رسالة السماء الواحدة ، لتغذية روح التعصب القومي عند أمة من الأمم بما فيها أمة العرب بالطبع ، بل يذكر الوقائع الماضية ليحقق شيئين أساسيين :

1) توعية المؤمنين وغير المؤمنين بالمصائر السعيدة أو البائسة للأقوام الذين سادوا وبادوا . بحيث يتعظ أبناء الأجيال الجديدة بما أصاب أولئك الأقوام من خير أو شر أو من سعادة وشقاء فيسعون إلى مواطن الخير والسعادة ويتجنبون مزالق الشر والشقاء .

2) إقناع من يحسنون تدبر الآيات في كتاب الله بأن الأرض والمياه والشجار والنباتات المختلفة والحيوانات وما في باطن الأرض وفوقها من مصادر الرزق كلها ملك لله عز وجل . وأنّ الناس قد استخلفوا عليها وقد سخرت لمنفعتهم ليحافظوا على سلامتها وأنهم إن انحرفوا عن الجادة التي مهدت لهم من قبل الله المالك الحقيقي للأرض والسماء وما بينهما يصيبهم ما أصاب السابقين وينزل بهم من الكوارث ما نزل بالماضين من الناس . فإذا بلغت منهم الموعظة مبلغها وشاعت في

نفوسهم هيبة الحضور الإلهي حفظت العناية الإلهية لهم مصادر عيشهم ، ومواطن أمنهم فيفوزون فيها بكل ما سخر لهم من النعم كما يفوزون يوم الحساب الأكبر بالثواب الجزيل .

****

لقد حرص الوحي السماوي على تسجيل هذه الحقيقة ورد الالتزام بمعطياتها إلى اليقين الذي يملأ قلوب المؤمنين .

ولو أننا حاولنا استعراض ما ورد في كتاب الله من قصص يتعلق بمصائر الأنبياء والرسل والأقوام الذين تتابعوا في قرون كثيرة سابقة لاجتمع لنا عدد كبير من الآيات القرآنية التي يبرز بها أدب غزير يربط بين الاستقامة والعمل من ناحية وبين سلامة البيئة الطبيعية التي يجد فيها الناس المصادر الحقيقية والثابتة لمعايشهم .

لقد غرقت بيئة قوم نوح عليه السلام بالمياه النابعة من الأرض والنازلة من السماء فبادوا بعد أن سادوا وأصابهم جزاء ما كانوا قد اقترفوا من الآثام ، وجزاء سخريتهم بدين الله ورسوله.

وكما تعرض قوم نوح للهلاك الذي نزل بهم في الأرض التي يدرجون فوقها فقد تعرض أقوام آخرون بعدهم لمثل هذا الهلاك . منهم من عصفت بهم العواصف العاتية ، ومنهم من زلزلت بهم الأرض ، ومنهم من رجمتهم السماء بالحجارة، ومنهم أخيراً من تعرضوا لأخطار أوبئة جارفة ماحقة حالقة فأصبحوا وكأنهم أعجاز نخل خاوية.

كل ذلك جاء به الوحي السماوي مروياً لا لإمتاع القارىء بل لإفهامه بأن السلامة في الأرض ليست مشروطة فقط باتخاذ الاحتياطات المادية وحسب بل هي مشروطة أيضاً بالجانب الأدبي . وأن العلاقة بين النظافتين المادية والأدبية هي علاقة حتمية لا انفصام بينهما . فكان من حكمة الله عز وجل إيراد قصص الشعوب القديمة بالقدر الذي يحقق الغاية التي يطمح الإنسان إلى بلوغها وهي السلامة.

أوَليس أنّ الذين يقبلون على تدمير البيئة التي أخرجها الله عز وجل للناس سليمة معافاة ، كانوا جديرين بالامتناع عن هذا التدمير لو أنهم تصرفوا في ضوء اعتقادهم بأن كل ما سخر لهم هو عارية مستردة ؟ وأن الله عز وجل هو المالك الحقيقي لهذه العارية ؟ وأن حسن التصرف بها هو شرط استمرارها موطن أمن وسلامة ؟ لكن الواقع أن كثيرين من الناس قد عمُوا عن هذه الحقيقة وتصرفوا بالبيئة تصرف المالك العابث بها لا يشغله من شؤون الدنيا غير ما يحصلون عليه من المنافع

المباشرة حتى ولو كانت على حساب غيرهم من المعاصرين لهم أو من الذين يأتون بعدهم من الأبناء والأحفاد . لقد أثبتت التجارب التاريخية بأنّ البقاء حصيلة عاملين أساسيين :

1) الإيمان الذي يغذّي الإحساس بأهمية الأمانة التي يؤتمن الإنسان عليها وهي النعم المبثوثة في السماوات والأرض وما بينهما.

2) الكشوف العلمية التي يتعرف بها أصحابها إلى قوانين السلامة وشروط البقاء والظروف المادية للأمن.

كما أثبتت التجارب التاريخية أيضاً بأن افتقاد أحد هذين العاملين مصدر لخطر الإبادة ، ومادة لاغتيال سعادة البشر. فالعلم وحده يفتقد الحافز الروحي .. والإيمان يفتقد معناه وجوهره حين لايكون حافزاً على السعي في الأرض والسير فيها ابتغاء الكشف عن قوانين السلامة ومصادر الثراء . وهذا هو معنى قوله تبارك وتعالى في محكم تنزيله : " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ".الآية من سورة العنكبوت .

****

أوَليس أنّ ما تتعرض له الكرة الأرضية اليوم من التلويث الشامل في تربتها وأنهارها وبحارها وأشجارها وحيوانها وأجواز فضائها لم تحل دون وقوعه كل الإنجازات العلمية المادية التي حققها الإنسان ؟ أوليس أنّ فقدان الإيمان بالعناية الإلهية وتجاهل حق الله على الإنسان هما اللذان يدفعان كثيرين من صانعي القرارات إلى إفساد الأرض وتلويث الكثير من مصادر الرزق ؟

إنّ المعرفة العلمية وحدها غير كافية لتحقيق خطة الالتزام لسلامة البيئة . فالحاجة ماسة إلى حرارة الإيمان وهيمنة القيم الروحية التي تدفع أصحابها إلى التعامل مع البشر على أساس أنهم أصحاب حقوق متساوية في الكرامة والارتزاق وإلى التعامل مع الأرض على أساس أنها وحدة لا تقبل التجزؤ والانفصام.

****

كل هذا الذي أثبتناه يعود بنا إلى كلام الله الذي جعل من ضرورة العودة إلى الماضي والاتعاظ بمصائر أصحابه مدخلاً أساسيا للحفاظ على شروط الحياة الصحية السليمة في الحاضر.

والجدير بالذكر أن كلام الله عن الماضي يمكن أن نقسمه إلى قسمين أساسيين :

1) قسم يسلط الضوء على مصائر الأقوام الذين فسدوا وأفسدوا وتجاهلوا حق الله في أنفسهم وفيما حولهم.

2) قسم آخر يحض المؤمنين وغير المؤمنين على التحرر من هيمنة ما يسوء من صفات الماضين وسلوكهم ويدفعهم في الوقت نفسه إلى تقليد الصفات الطيبة عند هؤلاء الماضين .

ما ورد في موضوع القسم الأول : –

أما فيما يتعلق بموضوع القسم الأول فإننا نجد مصداقه في آيات كريمة اخترناها على سبيل التمثيل لا الحصر . قال تبارك وتعالى:

1) " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" الآية 109 من سورة يوسف.

2) " أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " . الآية 9 من سورة الروم.

3) " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ".. الآية 10 من سورة محمد.

4) " قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ " الآية : 137 من سورة آل عمران.

هذه الآيات القرآنية غيض من فيض، تُحدّث الناس حديث الأقوام الماضية وتربط بين كفرهم وسلوكهم المنحرف وبين ما نزل بهم من الهلاك . وتبدو لنا العلاقة بين اليقين الصادق وبين إحساس الإنسان بأنه مستخلف على الأرض إلى أجل

مسمى حين نتلو الآية 12 من سورة الأنعام التي جاء فيها قوله عز من قائل : " قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ".

ما ورد في موضوع القسم الثاني : –

1) " وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ " الآية : 170 من سورة البقرة .

2) " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ "الآية 104 من سورة المائدة.

3) " وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ". الآيات 51 – 54 من سورة الأنبياء .

****

هذه الآيات الكريمة وكثير غيرها تحمل حملة شعواء على أولئك الذين يقلدون الماضي تقليدً أعمى فلا يملكون الجرأة على مخالفة ما انتهى إليهم من العادات والتقاليد والعقائد ، كما لا يملكون البصيرة التى يميزون بها الحق من الباطل . فهي تحضهم على التحرّر من الانحرافات التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم وتحمّلهم مسؤولية ما يصدر عنهم من السيئات فلا تغفر لهم أن يكونوا عبيداً وأتباعاً للماضي، لأن الغاية من تدبر وقائع الماضي ليست تقليدها بل التعرف إلى جوانب الحق والباطل فيها ، أي أخذ ما فيها من الحق وترك ما فيها من الباطل.

****

وخلاصة القول أن دور البيئة الزمانية يفترض في كل ذي عقل وبصيرة أن يتدبر وقائعها ويتعلم من تجاربها ما يتجنب به الأخطار التي تعرض لها السابقون من الأقوام والشعوب . إنّ العبرة التي تستخرج من هذا الماضي هي التي نتعلم منها

كيف نحترم تعاليم الله عز وجل وكيف نتعامل بنظافة واستقامة مع كل ما سخره الله لنا من النعم التي لا تحصى. وفي مقدمتها تلك التي أثبتناها في صفحات هذا الكتاب.

الأرض – الماء – الشجر والنبات – الحيوان – الفضاء الذي يحيط بنا في كرتنا الأرضية.

البيئة المكانية

ذكرنا في التمهيد السابق أن البيئة بيئتان : بيئة مكانية وبيئة زمانية ، وأن التعاليم الواردة في كتاب الله وسنة رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم قد حرصت على تبيين وجوه التسخير وطريقة الانتفاع بها في الحياة الدنيا كوسيلة لا لتحقيق ما أمكن من سعادة الإنسان في الأرض وحسب بل من سعادته في اليوم الآخر أيضاً . وفي هذا الربط المحكم بين السعادتين وبين الحافز الروحي النابع من الإيمان بالله عز وجل الذي هو الأمانة الكبرى الموكولة إلى الإنسان ما يؤكد خطورة الالتزام لسلامة البيئتين في وقت معاً .

حق الإنسان في الانتفاع بالبيئة المكانية : –

قال تبارك وتعالى في الآية 15 من سورة الملك : " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ".

وإذاً فالأرض التي يدرج الإنسان فوقها قد خلقت على الصورة التي يسهل معها على الإنسان السير فيها والتعامل مع أشيائها التي أثبتت الإنجازات العلمية حتى اليوم بأنها من الغنى والوفرة بحيث تستطيع أن تستجيب لكل مطالب هذا الإنسان . وأنه لو حاول أن يعدها لما توصل إلى إحصائها أبداً . كما حض الخالق عز وجل هذا الإنسان على السعي في الأرض ليأكل من الرزق الموفور فيها على أن يذكر دائماً بأنه لا يملكها ملكية خاصة بل ينتفع بها في ظل يقينه بأنه مبعوث يوم النشور بيد يدي الله.

أما الملكية فهي لله عز وجل . كما في قوله عز من قائل في الآية 6 من سورة طه : " لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ " وهذا يعنى بأن الإنسان المخلوق مؤتمن على ما استخلف عليه . وأن الدنيا عارية لابد وأن يأتي يوم تسترد فيه من الخليفة يصنع بها الله ما يشاء . نجد هذا المعنى في قوله جل وعلا في الآية 36من سورة البقرة " فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ".

والعداوة هنا ليست بين الإنسان والإنسان بل هي بين الإنسان وإبليس الذي جعل الله منه فتنة لهذا الإنسان يمتحن بها دينه وصلابته في رفض وساوس الشيطان ومحاولاته الملحة في الانحراف بالإنسان عن السلوك الذى ارتضاه الله عز وجل له وأمره بالالتزام له.

****

هكذا جعلت الأرض مستقراً لهذا الإنسان ومتاعاً له لفترة معينة تنتهي بوفاته لينتقل بعد ذلك إلى الموقف الكبير الذى يجد فيه ما عمل من خير محضراً بين يديه وما عمل من سوء يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً .

ويتكرر في كتاب الله الأمر الموجه إلى الإنسان بالإنفاق مما جعل مستخلفاً غليه من أرزاق الأرض أي مما هو معه على سبيل العارية، لا سيما وأن هذه العارية قد كانت متاعاً لمن جاء قبله وستبقى متاعاً لمن يجيء بعده . على أن يكون استعمال الإنسان لهذا المتاع والاستفادة منه في طاعته عز وجل . فإن لم يفعل ما يؤمر به حوسب على امتناعه وعوقب لتركه الواجب المفروض عليه.

يقول القرطبي في تفسيره لمعنى قوله " ممّا جعلكم مستخلفين فيه " : هذا دليل على أن أصل الملك لله سبحانه. وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذى يرضي الله فيثيبه على ذلك الجنة . فمن أنفق من الأرض في ظل حقوق الله فيها كان له الثواب الجزيل والأجر العظيم.

والانتفاع بمتاع الأرض يترتب عليه الشكر للمنعم والتحدث بنعمه. وقد ورد هذا المعنى في الآية 11 من سورة الضحى . : " وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ " فمن التحدث بنعمة الله استخدام النعم فيما شرعت له.

والثابت أن التزام الإنسان بالمحافظة على ما أنعم الله عليه من الموارد الطبيعية التي لا تحصى عدداً يعتبر أساساً للبحث فميا يتعلق بحماية تلك الموارد.

لقد خلق الله النفس البشرية وأمر بحمايتها من كل أذى وعاقب على الإساءة إليها وشدد النكير على قتلها . ولما كانت سلامة النفس مشروطة بسلامة البيئة التي تحيط بها فإنّ كل إساءة الى هذه البيئة هي في الحقيقة إساءة غير مباشرة

للنفس الإنسانية . وقتل البيئة بالتالي هو قتل لهذه النفس في الوقت ذاته . وبذلك يمكننا القول بأن حماية البيئة مرتبطة بحماية النفس البشرية من كل أذى ومن الموت بصورة خاصة.

****

ولكن ما الذى نعنيه من كلمة " بيئة " ونحن نربط بين سلامتها وسلامة الحياة البشرية ؟

إن البيئة هي : التربية التي يجب الحفاظ على خصوبتها والماء الذي يجب الإبقاء على طهارته ونقاوته، والأشجار التي تعتبر أهم مورد من موارد الغذاء، ومختلف النباتات التي هي مصدر آخر كبير من مصادر الغذاء أيضاً، والحيوانات التي تدرج فوق الأرض والطيور المحلقة في الفضاء، وهي مصدر ثالث من مصادر الرزق . ثم ما فوق الأرض من الظروف المناخية التي تنتظم بسلامتها سلامة النفس البشرية . على أن سلامة هذه البيئة المتعددة الوجوه مشروطة أيضاً بالعلاقات الوثيقة الطيبة التي تنعقد بين الإنسان وأخيه الإنسان . فالحياة في الأرض لا تزدهر بجهد فرد بعينه ولا بجهود أفراد معينين بل يكون ازدهارها بالجهود المشتركة التي يبذلها كل البشر مهما تناءت بهم الديار وتباعدت بينهم الأزمان. فالإساءة اليوم إلى الأرض لا تبقى إساءة لمن يعيشون فيها فقد بل هي إساءة واسعة تصيب من يأتي بعدهم من أفراد الأجيال اللاحقة .

****

وقد أثبتت وقائع هذا العصر وقد ضاقت الأرض فيه بما رحبت بعد أن تشابكت المصالح وكادت تصبح فيه الدنيا بسبب هذا التشابك مدينة كبيرة واحدة بأنّ أي إفساد يحدث في جانب من الأرض لابد وأن يحدث أثره في جوانب الأرض الأخرى.

يترتب على هذه الواقعة أن حسن الجوار وإشاعة السلام والتنسيق بين المصالح وتوحيد الجهود للدفاع عن الكرة الأرضية من أجل حماية الجنس البشري قاطبة شروط أساسية لسلامة الحياة العامة . فالبيئة المكانية إذاً ليست محصورة في منطقة معينة والحفاظ عليها لا يتحقق بإهمال المناطق الأخرى في ظل أنانية ضيقة ونظرة قصيرة إلى المصير البشري ، بل أن هذه البيئة المكانية هي من الاتساع والشمول بحيث تستوعب الأرض وما فيها وما فوقها بعد الإنجازات العلمية والتكنولوجية

التي تحققت وتتحقق حتى اليوم. ومن المرتقب أن تكون إنجازات المستقبل مدعاة لمزيد من الاهتمام في تحقيق سلام عالمي .

الأرض : –

هنا نعود إلى كتاب الله عز وجل لنستبين حكمة الله تبارك وتعالى في خلقها واستخلاف الإنسان عليها . قال عز من قائل :

- " الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا " .. الآية 22 من سورة البقرة.
- " وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ " ..الآية 164 من سورة البقرة .
- " وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ " ..الآية 165 من سورة الأنعام.
- " وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ " ..الآية 10 من سورة الأعراف.
- " هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ " .. الآية 61 من سورة هود.
- " وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ " .. الآية 13 من سورة النحل.
- " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ " ..الآية 63 من سورة الحج.
- " وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ " .. الآية 18 من سورة المؤمنون.
- " وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ " ..الآيات 33 –35 من سورة يس .

****

هكذا جعل الله من الأرض فراشاً ممهداً للناس ثم استخلف هؤلاء عليها ومكنهم فيها وهيأ أسباب الحياة لهم في مناكبها ورزقهم فيها . كما خلقهم من طينة الأرض ثم نفخ فيهم من روحه وطالبهم بأعمارها كما عمرها من جاء قبلهم ومن يجيء بعدهم، ثم أخذ يعدد لهم ألوان ما خلق لهم من النبات والحيوان مما هو آية على عظمة خلقه ووافر نعمه

ووحدانية ذاته . وجعل من ماء السماء الذي ينزله بقدر معلوم مصدراً لاخضرار الأرض وإحيائها وأكد على أن ماء السماء ينزل بقدر معلوم فلا يزيد عن الحاجة حتى لا يتحول ما على الأرض إلى ركام، ولا يقل عن الحاجة حتى لا تتعرض الأرض للجفاف والموت . ثم أضاف الى ما سبق ذكره عرضاً لأنواع النعم الأخرى : الحبّ الذى يأكلونه والجنات من النخيل والأعشاب والعيون المنبثقة من باطن الأرض ،كل ذلك ليأكلوا من ثمر هذا الرزق الحلال وما عملته أيديهم ...

هكذا سخر الله تعالى لعباده كل ما خلق في الأرض من الدواب والأشجار وأنواع النباتات والأنهار والبحار وغيرها مما لا سبيل إلى إحصائه أبدا .

****

والله عز وجل لم يخلق هذه الأرض وما فيها عبثاً . ذلك لأنها تكفل للإنسان أسباب الحياة التي لم تخلق إلا لشيء واحد هو إخلاص العبادة لله عز وجل : " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ " . ولما كانت العبادة شهادة الإنسان على ربوبية الله عز وجل، ولما كانت هذه الشهادة لا تبقى قائمة إلا باستمرار العبادة ، ولما كان استمرار العبادة مشروطاً بالحفاظ على أسباب الحياة في الأرض فإنّ من الطبيعي جداً أن تبقى العبادة قائمة ميسورة بالقدر الذي يتم فيه الحفاظ على الأرض سليمة معافاة والعبادة واجبة ، ووجوب العبادة لا يتم إلا بسلامة الأرض . وبذلك أصبحت سلامة الأرض واجبة عملاً بالقاعدة الأصولية التي تقرر أنه: " ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب " ..

****

والواقع أننا حين نقرر العلاقة الواجبة بين الحفاظ على الأرض واستمرار العبادة فنحن لا نأتي بجديد، فإنّ كل المفسرين المعتمدين لكتاب الله متفقون على وجود هذه العلاقة بين الطرفين، وفي مقدمتهم الطبري وابن كثير والقرطبي في تفسير ما أوردنا من آيات سورة البقرة، ثم الطبري وابن كثير أيضاً في تفسير ما أوردناه من سورة الأنعام، ثم الطبري وابن الجوزي في تفسير ما أثبتناه من سورة الأعراف، ثم القرطبي وابن كثير والرازي الجصاص فيما استشهدنا به من سورة هود، ثم الطبري وابن كثير والقرطبي في تفسير الآيات من سورة يس، ثم القرطبي فيما ذكرناه من سورة المؤمنون، وأخيراً الطبري والقرطبي في التعليق على ما أوردناه من سورة النحل.

****

هكذا يستبين لنا أن الأرض أمانة غالية تدخل في مفهوم الأمانة العامة التي قبل الإنسان أن يحملها بعد أن أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها . ولا عجب في ذلك فبالرغم من أن كل ما في السماوات والأرض وما بينهما يسبح لله عز وجل، أي يمارس نوعاً من العبادة للخالق الأعلى فقد منح الإنسان وحده من دون كل هذه المخلوقات ما لم يمنح لكل ما نعرف وما لا نعرف من خلق الله . وقد أبرز الله هذه المنحة العظيمة التي أفرد بها الإنسان حين طلب من الملائكة وهم العباد المخلصون أن يسجدوا لآدم فسجدوا خاضعين طائعين، مع العلم أن الملائكة كائنات نورانية فطرت على العبادة الخالصة وعلى طاعة ما تؤمر به فلا تملك غير حرية واحدة هي حرية العبادة تماماً كما هو شأن السماوات والأرض التي فطرت بدورها على حرية واحدة هي حرية العبادة على طريقتها التى لا نعرفها. أما الإنسان المتميز الذي يملك إرادة الفعل وعدم الفعل ، أن يحسن وأن يسيء على مسؤوليته، فهو وحده الذي يملك القدرة على اختيار أحد النجدين اللذين بسطتهما العناية الإلهية بين يديه. فأمانة الأرض إذاً هي أمانة للإنسان وحسب . وهو وحده الذي يملك القدرة على الاحتفاظ بصلاحها أو على إفسادها وهذه مسؤولية خطيرة ، النجاح فيها يرتفع بالإنسان إلى عليين والفشل فيها يهبط به الى الدرك الأسفل من النار.

إنها كما يقول بعضهم : " حكمة الله تعالى في خلق الأرض وتسخير كل ما عليها للناس ليتعيشوا بما أودعه فيها من الأقوات والأرزاق ومن القوى والطاقات مما يسمح بنشأة هذا الجنس وحياته، وبنمو هذه الحياة ورقيها معاً . وهو الذي جعل هذا الجنس سيد مخلوقات الأرض قادراً على تطويعها واستخدامها بما أودعه الله فيه من خصائص واستعدادات للتعرف إلى بعض نواميس هذا الكون وتسخيرها في حاجته.

إن الإنسان هو ابن هذه الأرض ، أنشأه الله منها ، ومكنه فيها ، وجعل له فيها أرزاقاً ومعايش ، ويسر له المعرفة التي تسلمه مفاتيحها ، وجعل نواميسها موافقة لوجود هذا الإنسان ، تساعده وتيسر حياته .

" أنظر تفصيل هذه المعاني في تفسير سورة الأعراف لسيد قطب ".

****

ولا ننسى أن القرآن الكريم قد حذر الناس من الإفساد في الأرض بعد أن بسط أمامهم بعض أنواع النعم المتوفرة فيها . وقد تحدث الطبري عن هذا الإفساد الذى نهى الله عنه تعقيباً على الآية 11 من سورة البقرة التي جاء فيها قوله عز مِن قائل : " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ "، يقول الطبري ما معناه أن الإفساد في الأرض هو العمل فيها بما نهى الله عنه ، وتضييع ما أمر الله بحفظه ، فذلك جملة الإفساد.

فإذا انتقلنا إلى الآية التالية : " أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ " بدا لنا أن المقصود بالفساد الذي يشعر به هؤلاء المفسدون ليس فساد الأخلاق بمعناه الضيق بل هو كل فساد يسيء إلى خلق الله . فإهمال العمل في الأرض والامتناع عن عمارتها بالزراعة والغرس والبنيان هو إفساد خطير لأنه يميت الأرض من ناحية ويحرم الناس من العيش المريح من ناحية أخرى .

بل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ربط حق الملكية فى الدنيا بالعمل في الأرض وإحيائها، لما روى جابر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من أحيا أرضاً ميتة فهي له) .. أورده أبو داود والترمذي. وفي رواية أخرى لجابر نفسه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : " من أحيا أرضاً ميتة فله فيها أجر وما أكله العوافي منها صدقة " . ويجب أن نضيف هنا تصحيحاً لما أورده المهذب من أنّ إحياء الأرض ليس مستحباً بل هو واجب لحديث الرسول الذي أوردناه والذى يربط بين العمل في احياء الأرض وملكيتها.

فالمزارع الذي يهمل أرضه ويمتنع عن إحيائها لا يحق له الاحتفاظ بها فتنزع منه وتعطى لمن يفلحها ويستنبتها، أوَلا يعني هذا وجوب إحياء الأرض على من يملكها ؟

إن إحياء الأرض نوع من إحياء النفس البشرية لأن الله عز وجل ربط بين إحياء الأرض وإحياء الموتى فتشابه الإحياءان . فإذا كان إحياء الإنسان الميت من عمل الله عز وجل فإن احياء الأرض من عمل الإنسان.

****

ولكن هل تموت الأرض بمجرد الامتناع عن سقيها أو الاهتمام بزراعتها وحسب ؟ لو أنّ موت الأرض يقف عند هذا الحد لكانت المشكلة قريبة الحل . وقد كان موت الأرض في الماضي في حدود الامتناع عن السقي أو الحرث. أما

اليوم فقد ساءت الظروف التي تحيط بالتربة بالإضافة إلى تزايد الطلب على استنباتها لتزايد عدد سكان الأرض بنسبة لم تكن تخطر في بال القدماء .

أما الظروف السيئة التي بدأت منذ زمن تهدد التربة بالبوار والموت اللذين يصعب جداً التغلب على أسبابهما وإبدالهما بحياة نشيطة فتية فهي حصيلة التلوث الصادر عن مواد سامة شديدة الضرر يحول وجودها في الأرض حتى الاستحالة دون إحيائها إلا بعد فترة طويلة أو قصيرة تبعاً لخطورة هذه السموم. والأكثر من ذلك أن الأبحاث العلمية قد أثبتت بأن هذه المواد السامة في حالة استنبات التربة التي تنتشر فيها لا تلبث أن تنتقل إلى الثمار فتكون مصدر خطر يهدد حياة الإنسان والحيوان.

****

والمواد السامة هذه هي التي تنتج عن الصناعات الذرية التي انتشرت بعد الحرب العالمية الثانية، وعن الصناعات الكيماوية الأخرى التي تفرز نفاياتها في مياه الانهار والجداول والبحيرات.

وقد تحدث الخبراء في الغرب الأوروبي والأميركي عن جملة من أنهار ومجار مائية وبحيرات ماتت بسبب النفايات السامة التي تصب فيها والتي ينتقل ضررها بعد ذلك إلى الأراضي المتاخمة لها.

وقد وقعت تحت أيدينا إحصاءات لظاهرة الأرض الموات بسبب الأنهار والمجاري والبحيرات الميتة مما يؤكد تعرض كل شيء حولها للخطر، الإنسان والحيوان والنبات . وتتصل هذه الإحصاءات بالكوارث البيئية التي ظهرت في بعض المناطق الفرنسية.

وإذا كانت هذه الكوارث قد أحدثت حتى اليوم نتائج خطيرة في البلدان المتقدمة رغم بعض الجهود التي تبذل لتنقية المياه وتجنب التربة خطر التعرض لسموم هذه المياه ، فإن حركة التصنيع ولا سيما التصنيع الكيماوي المتمثل في منطقة الخليج العربي في صناعة البتروكيماويات لا تلبث بعد فترة وجيزة أو طويلة أن تكون مصدراً لهذه الكوارث إذا لم تتخذ الإجراءات العلمية الكفيلة بحماية الإنسان والحيوان والنبات وبحماية الأرض أيضاً .

فإذا كان من حكمة الله عز وجل أن تبقى الأرض مصدر الرزق الأكبر للإنسان والحيوان والنبات فإن في قتل هذه الأرض بسبب السموم الناتجة عن الصناعات الحديثة قتلاً للنفس الإنسانية وإساءة خطيرة تبلغ حد الجناية التي يحذر الله من التورط فيها وإفساد ما خرج صالحاً للحياة من بين يدي الله عز وجل.

ونبات الأرض ليس غذاء للإنسان فقط بل هو ايضاً غذاء للحيوان الذي أباح الله للإنسان أكله. هذا هو الفساد أو وجه من وجوهه التي نهى الله عنها في كتابه الكريم .

****

والجدير بالذكر أن الوحي السماوي إذ يتحدث عن فضل الله على الناس ويسط الضوء على رحمته بهم بواسطة المخلوقات التي سخرها لهم لا يمكن إلا أن يعتبر خطة الإفساد نوعاً من العصيان الجريء على الله، وخطة إبادة للنعم الإلهية التي لا يحصيها عدّ أبدا . ها هو الوحي الكريم يحدثنا عن هذه الرحمة وذلك الفضل في الآية 141 من سورة الأنعام فيقول عز مِن قائل : " وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ".

ولنذكر في هذه المناسبة قاعدة من القواعد الأساسية في الشريعة الإسلامية التي عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله " لا ضرر ولا ضرار" فكيف يصحّ للمسلم الذي يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتجاهل هذه القاعدة التي تحرم عليه الإضرار بنفسه وبالآخرين؟؟. والمقصود بالآخرين في رأينا ليس هم الناس وحسب بل هو كل ما يمكن أن ينعكس بالضرر على نظام الخلق كما قدره الله عز وجل . ويأتي الإضرار الذي يصيب الأرض ومصادر حياتها في مقدمة هذا المعنى.

ويروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله أيضاً " لا يحلّ لمسلم أن يروع مسلماً"، أفليس في العمل على قتل الأرض مصدر ترويع للمسلم ؟ ثم أليس في قتلها إفساد لما سخره الله من مخلوقاته لخدمة الإنسان بغض النظر عن عقيدته وهو سبحانه الذي يخبرنا بأنه قد سخر ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما لخدمة هذا الإنسان وحمايته من الأخطار ؟

هكذا يكون المصطفى صلى الله عليه وسلم قد وضع بما أوردناه من أحاديثه وما لم نورده ، دستوراً يجب على المسلم أن يلتزم لتعاليمه في علاقته بغيره من الناس والحيوان والنبات والجماد . ولا شك أن إحياء الأرض هو بعض أساسيات هذا الدستور.

المياه : –

وقبل أن نتحدث عن موقف الإسلام من المياه يجدر بنا الإشارة إلى وحدة النظام في الكون وبالتالي إلى التكامل القائم في كل جوانبه . إن جوهر النظام الكوني يتحدد في التوازن الدقيق في كل أجزاء الخلق . فإذا تعرض هذا التوازن للفساد تعرض الكون كله لأخطار لا سبيل إلى تصورها. ونحن لا نستبعد في ضوء روح التعاليم الإسلامية أن تكون الساعة التي يحدثنا الله عنها في عدد من آيات كتابه هي حصيلة الفساد في ظاهرة التوازن هذه . لا سيما وأنه تبارك وتعالى قد أخبرنا بأن مخلوقاته كلها خاضعة لسنن لا تتحول ولا تتبدل . والسنن هذه هي التي تحفظ للوجود مسيرته فإذا تعرضت للفساد بسبب تصرفات الإنسان فاختل نظامها وضاع التوازن الناتج عنها كانت الساعة التي تنتهي معها الحياة البشرية .

وإذاً فإنّ سلامة المياه التي قال الله عنها في محكم تنزيله " وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ " هي شرط السلامة للأرض التي سبق أن تحدثنا عنها .

والأدب القرآني في حديثه عن المياه مبسوط في عدد من الآيات المحكمة، يقول عز مِن قائل :

- هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) ..سورة النحل.
- "أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ "..الاية 96 من سورة المائدة.

- " وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99) " ..الآية 99 من سورة الأنعام.
- " وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ "..الآية 22 من سورة الحجر.
- " وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ " ..الآية 65 من سورة النحل.
- الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ " ..الآيتان 53 – 54 من سورة طه.
- " وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا " ..الآية 53 من سورة الفرقان.
- " أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61) " .. سورة النمل.
- " وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (33) " .. سورة النازعات.

****

إذا كان إعمار الأرض غرضاً من أغراض الخلق الإلهي ، على أساس أن الإعمار نوع من العبادة ، فإن من الطبيعي أن تكون كل خطة هادفة الى تعويق مسيرة الإعمار بوسيلة من الوسائل معارضة صريحة لإرادة الله من الناس الذين استخلفهم في الأرض ..

وإذا كانت المياه العذبة النقية من كل شائبة عارضة شرطاً من شروط الإبقاء على الحياة الصحية السليمة فإن أي محاولة لتكدير هذه المياه هي حرب معلنة على سنن الله وقوانينه الثابتة في مخلوقاته.

وعندما يشن الإنسان حرباً على قوانين الله وسننه بسبب غروره وسوء تقديره وفساد طويته فإن الغالب في هذه الحرب هو الله عز وجل دون ريب . فالله في كل موقف هو الغالب على أمره.

وصف نفسه بالقدرة والقوة والكبرياء والغلبة كما وصف نفسه بالرحمة الواسعة . فإذا كان قد منح مخلوقاته من البشر هذا الدفق العظيم من المياه التي تنزل من السماء بقدر معلوم أو تخرج من باطن الأرض على صورة ينابيع فهذا بعض رحمته بالناس ، فإذا لم يحسن الناس الحفاظ على سلامة ما تمنحهم إياه العناية الإلهية ، فإنّ استجابة الخالق أمام هذا الاستهتار البشري تكون على الصورة التي وصف بها نفسه أيضاً بالقدرة والقوة والكبرياء والغلبة ، كما هدد العاملين على إفساد هذه المياه بالحرمان من أسباب الحياة الصحية في الدنيا والجنة في الآخرة.

إن كلمة " أمانة " التي وردت في كتاب الله هي من الشمول واتساع المعنى بحيث لا يسعنا إلا أن نجد فيها المعنى الذى يستوعب كل شيء .. ويتصل بكل مهمة.

ففي الآيات 10 – 15 من سورة النحل التي بدأنا معها إيراد الشواهد القرآنية حول دور الماء النقي في توفير أسباب العيش الهنيء نستبين جانباً من جوانب هذا الدور العظيم . فالله عز وجل فيها يخبرنا أنه أنزل وينزل من السماء ماء عذباً وخلق الماء الأجاج . أما الماء العذب فقد عددت في الآيات المذكورة منافعه كما يلي : –

1) الشراب الذى نحمي به أنفسنا من الهلاك عطشا.

2) الشجر الذي نطلق فيه أنعامنا ترعى فيه.

3) الأشجار والنباتات المختلفة الألوان والطعوم . من بينها الزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات التي لا سبيل الى تعدادها هنا . ومن بينها أيضاً أنواع الحبوب والبقول مختلفة ألوانها.

وأما الماء الملح الأجاج فقد تحدثت الآيات نفسها عن الدور الخطير الذي يقوم به كما يلي : –

1) الماء الملح الأجاج في البحار والمحيطات وإن كان لا يصلح للشرب لكنه البيئة الصحية الطبيعية التي سخرت للإنسان ليأكل منها لحماً طريا.

2) الماء الملح الأجاج في البحار والمحيطات هو أيضاً البيئة الطبيعية التي تستخرج منها حلية يلبسها الناس فيتزينون بها.

3) إن هذا الماء نفسه الذي يغطّي تقريباً ثلاثة أرباع الكرة الأرضية هو البيئة التي تجري فيها الفلك والتي تحولت من بعد إلى عمارات بحرية عملاقة ينتقل الناس بواسطتها من مكان إلى آخر يبتغون بها من فضل الله عليهم .

****

فإذا كانت الغاية من المياه العذبة والأجاج تحقيق كل هذه المنافع ، وليس بالقليل أن يتمتع الناس بها ، فإن العمل على إفسادها بسبب منافع غريبة ووقتية تتبع الحاجة إليها من قصر النظر أو الأنانية الضيقة والرغبة في تحقيق أرباح سريعة مباشرة ، هو عدوان متعدد الأغراض ، إنه عدوان على حياة البشر ، وعدوان على حياة الحيوان في البر والبحر وبالتالي عدوان على توازن الخلق كما فطره الله عز وجل .

****

والقرآن الكريم على طريقته في ترسيخ الأفكار وتعليم الناس فن الحياة الصحية الصالحة للبقاء يكرر هذه المعاني في عدد من الآيات فيتناول واحداً منها تارة أو مجموعة منها تارة أخرى . وهو يسجل هذه المعاني بأساليب وطرق متعددة . ففي الآية 96 من سورة المائدة يقتصر على ذكر فائدة واحدة من مياه البحر حين يقول : " أحل لكم صيد البحر وطعامه " والغرض منه أن يكون متاعاً للناس وللسيارة .

وفي الآية 99 من سورة الأنعام يعدد مرة أخرى المنافع النابعة من إنزال مياه السماء التي كما يخبرنا عز وجل يخرج بها نبات كل شيء ابتداءً من النباتات الخضراء التي يخرج منها حباً متراكباً، ومن النخيل التي تخرج من طلعها قنوان دانية، ومن الجنات التي تنبت فيها الأعناب والزيتون والرمان المشتبه وغير المتشابه .

وتمضي الآيات الأخرى التي أثبتناها في مطلع هذا الفصل مفصلة فوائد الماء العذب النقي الذي تحيا به الأرض الموات كما في الآية 65 من سورة النحل.

ومن عجيب خلقه تبارك وتعالى فيما يعدده من المنافع في بعض الآيات المذكورة أعلاه يخبرنا كيف أنه حفاظاً على استمرار المنافع من الماء العذب والماء الأجاج يمرج البحرين " هذا عزب فرات وهذا ملح أجاج " وجعل بينهما برزخا وحجراً محجوراً " لا يلتقيان ولا يتمازجان .

****

ويتساءل الله عز وجل تساؤل المدرك بالطبع لجليل فوائد الماء ومنافعه وغيره من المخلوقات فيقول عز مِن قائل : " أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ(60) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(61) "..سورة النمل.

هنا يورد الله تبارك وتعالى بعض ما أنعم به على الناس بالإضافة إلى الماء، السماوات والأرض التي هي البيئة الكونية ، ثم الأرض التي جعلها قراراً وفراشاً ممهّداً ، أجرى فيها الأنهار ، وجعل بين البحرين حاجزاً ، ورفع الرواسي من الجبال حفظاً لتوازن الأرض في دورتها حول نفسها التي تعتبر الدقة فيها شرطاً لدقة دورتها حول الشمس ، والتي تعتبر الدقة في دورتها حول الشمس شرطاً لدقة دورة المجموعة الشمسية التي تسبح في الفضاء في تناسق عجيب مع ملايين بل مليارات من مجموعات نجمية أخرى تتحرك بدورها في تناسق عجيب مثله ضمن مجموعات هائلة من المجرات . فهو عز وجل حين يعلن الدقة في حركة هذه الألوان كأنه يقول لمن يتدبر كلامه الالهي بأن الإفساد الذي يقع في أي جزئية من جزئيات مخلوقاته هو تهديد لتوازن كل المخلوقات الكونية الكبيرة . وإذا كان العلم البشري ، وهو لا يوزن في جنب علم الله ، لم يدرك بعد العلاقة بين الصغير من المخلوقات وكبيرها فإنّ الله عز وجل برحمة منه يحذرنا من أخطار عاجلة أو آجلة تترتب على سوء تصرفنا الذي يفسد به أشياء الخلق القريبة منا . وتجاهلنا لتحذير الله عز وجل هو توكيد لعمى البصيرة عندنا لا لعمى أبصارنا. كما جاء في قوله عز من قائل وهو يحدثنا عن العمى الحقيقي : " إِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلكنْ تَعْمَى القُلوبُ التي في الصُّدُورِ " .

****

والجدير بالذكر أنّ السلوك التعبّدي في الإسلام قد تحدد وتعيّن على الصورة التي تساعد العابد على الاحتفاظ بسلامة الماء التي هي شرط الحفاظ على توازن المخلوقات كلها .

إن حاجات الإنسان لا تقتصر على الشرب والسقي والصيد، شرب الماء النقي وسقي الأشجار به والصيد في الأنهار والبحار وحسب، بل إنها تبرز أيضاً في الحاجة إلى الاغتسال والوضوء بالماء الطهور لتأدية الصلاة للخالق جل وعلا .

فوجوب الاغتسال من الاحتلام ومضاجعة الزوجة بالماء الطهور ثابت في قوله عز من قائل : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا" .. الآية 43 من سورة النساء . أما وجوب الوضوء فقد ورد ذكره في الآية 6 من سورة المائدة:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ .. " .

وعن الرسول صلى الله عليه وسلم يروى قوله : " لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول "وقوله : " لا يقبل الله صلاة من أحدث حتى يتوضأ ". أنظر: صحيح مسلم والمسند لابن حنبل.

فإذا كان الماء الطهور شرطاً لصحة الاغتسال من الجنابة والوضوء فإنّ الشريعة الإسلامية لم تطلق صفة الطهور دون تحديد . فجاء في كتاب " المغني " لابن قدامة هذا التحديد في قوله : أن الطهارة لا تحصل بغير ماء لأنها طهارة تراد للصلاة . وأن كل طهارة جائزة بكل ماء طاهر مطلق ما ليس بنجس . والمطلق ما ليس بمضاف إلى شيء يغيّره . وعلى ذلك فهى جائزة بكل ماء نزل من السماء أو نبع من الأرض في بحر أو نهر أو بئر أو غدير أو غير ذلك. وقد دل على ذلك قول الله تبارك وتعالى في سورة الفرقان الآية 48 " وأنزَلنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً " ، ووفقاً للرواية الراجحة عند الإمام أحمد رحمه الله ، لا تحصل الطهارة بماء خالطه طاهر يمكن التحرز منه فغيّر إحدى صفاته: طعمه أو لونه أو ريحه ..".

أوَليس في اشتراط طهارة الماء للاغتسال والوضوء ما يدلّ إلى حرص الشريعة على الاحتفاظ بصفات الماء كما ينزل من السماء أو ينبع من الأرض أو يجري فوق سطحها أو ينتشر في بحارها ومحيطاتها ؟ أوَليس في هذا الشرط ما يؤكد حرص الإسلام على الاحتفاظ بالماء بعيداً عمّا يلوثه أو يغير لونه أو ينجسه ؟.

****

وممّا يلفت النظر في كلام الله عز وجل أنه ألحّ على عباده الامتناع عن إفساد كل ما هو صالح في الأرض. فيقول تبارك وتعالى في الآية 56 من سورة الأعراف : " وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ".. صدق الله العظيم ..

تلويث المياه بالنفايات السامة التي تخرج من المصانع هو إفساد للأرض بعد إصلاحها ... وتنجيس المياه هو أيضا إفساد للأرض بعد إصلاحها ...

وتغيير لون المياه حتى ولو كان التغيير بطاهر يمكن التحرر منه هو إفساد للأرض بعد إصلاحها. بل إن تغوير عيون الماء هو إفساد في الأرض بعد إصلاحها كما روى القرطبي صاحب التفسير الكبير عن الضحاك قوله : " لا تغوروا الماء العين " وتغوير عيون الماء يعني دفنها وسدها، ثم يعلق القرطبي على ذلك بقوله : " إنما ذلك إذا كان فيه ضرر على المؤمنين " انظر القرطبي في تفسير سورة الأعراف .

****

ولو أننا حاولنا استقصاء كل ما ورد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حول الماء لاجتمع لنا أدب كثير لا سبيل إلى استيعابه في هذا الكتاب لكننا نقتصر على إثبات قوله عليه السلام : " لا يبولنّ أحدكم في الماء الدائم ثم يتوضأ به " (أورده الترمذى) . ولا ننسى أن الماء قد خلق في الأصل حقاً من الحقوق الثلاثة المباحة لكل الناس لقوله صلى الله عليه وسلم " الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلأ والنار ... فأيّ إفساد لما أبيح للناس أن يكونوا فيه شركاء هو إيذاء للناس كلهم.

****

إن الإنذارات التي تتردد أكثر فأكثر على أفواه الخبراء في ميدان البيئة منذ بدأت تبرز بوادر الإفساد لمياه الكرة الأرضية أي منذ بداية هذا القرن العشرين ، هي في الواقع نذير شؤم على البشرية .

وقد بلغ من اهتمام هؤلاء الخبراء في عالم الشعوب الصناعية بالتلوث الذي تتعرض له المياه أن علماً جديداً يطلق عليه اسم "علم البيئة" قد نشأ مع نشوء عمليات التلويث والإفساد . وأصبحت لهذا العلم قواعده وأصوله . وتكونت في ظله دراسات متعددة قصد بها الدعوة إلى اتخاذ الإجراءات الكفيلة بوضع حد للإفساد والتلويث . وتكونت بسبب ذلك جمعيات ولجان وصدرت دوريات وكتب علمية سلطت فيها الأضواء على الأخطار الجسيمة التي يتعرض لها الماء في العالم ولا سيما العالم المتقدم صناعياً .

وقد بسطت هذه الدراسات الأوضاع المأساوية التي آلت إليها بحيرات وأنهار وبحار بسبب تزايد ظاهرة التلوث في طول العالم وعرضه . بحيث أن مئات الملايين من ناس الأقطار الصناعية بخاصة وغير الصناعية بعامة أصبحوا يتخوفون من شرب المياه في كثير من الأنهار والبحيرات ، كما أصبحوا يشاهدون بعيون المختصين من علماء البيئة مصارع حيوانات بعض الأنهار ومناطق واسعة من البحار والمحيطات مما يحرمهم من مصدر كبير من مصادر الرزق التي أعدّها الله لمخلوقاته الحية ولا سيما الإنسان.

****

فنهر الرين مثلاً ، وهو الذي كان حافلاً بأسماك السلمون قد خلا تقريباً من أسماكه بسبب النفايات الصناعية التي تصب فيه من المصانع التي أقيمت على ضفتيه.

أما نهر السين الذي يمر في باريس والذي كان مصدر رزق لملايين من الناس فقد تعرض هو أيضاً لمثل هذا التلوث بالنفايات. وهناك أنهار أخرى في فرنسا وألمانيا وايطاليا ومجار مائية وبحيرات وعيون كلها تعرضت وتتعرض للتلوث على درجات متفاوتة لكن مصيرها كلها في النهاية هو المصير المأساوي الذي تنتفي معه أسباب الحياة.

وقد جاء في بعض الإحصاءات التي أوردتها مجلة " الاكسبريس " الفرنسية منذ أكثر من عشر سنوات أن إقبال الناس على المياه المعقمة والمعلبة التي يؤتى بها من أعالي الجبال قد بلغ من القوة بحيث أن استهلاك الفرنسيين منها ارتفع في ذلك العام إلى مليارين ونصف المليار من الليترات . وهم يحصلون عليها بثمن يرتفع بصورة مطردة . كل ذلك خوفاً من أن يتعرضوا للتسمم من شرب المياه في الأنهار والبحيرات حتى من شرب المياه في العيون.

****

إن العالم اليوم أحوج ما يكون إلى تكاتف شعوبه وحكوماته وذوي الرأي من أفراده في العمل على تجنيب البشرية مخاطر التلوث الذي تتعرض له المياه وذلك بوضع حد لأنانية أصحاب المصانع والإهمال في سياسة تصريف المياه القذرة والنفايات السامة حفاظاً على مصادر الحياة سليمة من كل أذى فتبقى كما أخرجتها العناية الإلهية صالحة خالية من الأوشاب والقاذورات . فإذا لم تتناد الشعوب والحكومات للتحرر من هذه الأخطار فإنّ ما يجري حتى اليوم في الكرة الأرضية نوع من الانتحار البطيء تجني الأجيال القادمة ثمراته المميتة .

الأشجار والنباتات : –

الحديث عن دور الأشجار والنباتات المتنوعة التي تكفل للناس مصدراً من أهم مصادر الرزق الذي خلقه الله وأباحه للناس كافة هو النتيجة الطبيعية التي تتلو الحديث عن المياه وضرورة الاحتفاظ بها نقية طاهرة . ذلك لأن التلوث في المياه لا يلبث أن ينتقل إلى الأشجار والنباتات . وبالتالي ينتقل إلى أجساد الطاعمين فيكون خطراً على الصحة العامة.

لكن الحفاظ على الأشجار والنباتات لا يقف عند الحفاظ على نقاوة ماء السقي، فإن غباء بعض الناس أو أحقادهم وأنانيتهم يمكن أن تكون مصدر خطر آخر على هذه النباتات والأشجار.

****

لقد جاء في الحوليات التاريخية ما يدل إلى أن الحروب التي كانت تشتعل بين القبائل والشعوب لم تكن تحرق الناس وحسب أو تقضي على بيوتهم وتدمر معابدهم وتجتاح صوامع الزهاد والنساك منهم بل كانت تصيب بهذا الحريق الأشجار والنباتات قصداً إلى حرمان أصحابها الأعداء من مصادر أرزاقهم.

وقد تكررت ظاهرة الإفساد هذه خلال أكثر الحضارات وفي فترات عديدة، ولم تنعكس أضرارها على أصحاب العلاقة وحسب بل على كل الأطراف المقاتلة وعلى الذين يتخذون موقف الحياد أيضاً.

وقد وعت الشريعة الإسلامية السمحاء أهمية الأشجار فجنبتها نيران الحروب وفرضت بحزم شديد على المؤمنين بها الامتناع عن إلحاق أي أذى بها . وكانت الخطبة التي ألقاها الخليفة الراشد الأول أبو بكر رضي الله عنه شاهداً على الموقف السليم الذي اتخذته الشريعة الإسلامية من هذه القضية.

لقد أجمع المؤرخون الذين رووا نصّ هذه الخطبة على أنه قد حرّم على جنده قطع الأشجار وإلحاق الأذى بالنباتات في بلاد الأعداء . كما أنه أمرهم في الوقت نفسه بالامتناع عن إلحاق أي أذى بغير حملة السلاح من الأعداء . فلا عدوان على النساء والشيوخ والأطفال . كما لا عدوان على الرهبان الذين عزلوا أنفسهم في الصوامع . أي أنه رضي الله عنه حصر القتال في حدود ضيقة بحيث لا تعود الحرب وسيلة تدمير بل وسيلة تأديب وتعليم.

فليس في الحرب الإسلامية انتقام ولا أحقاد، لأن الأحقاد عمياء، والانتقام دعوة شيطانية . " وإن جَنَحُوا لِلسَّلمِ فاجْنَحْ لهَا وتَوَكَّلْ عَلى الله" الآية 61 من سورة الأنفال.

" وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ" الآية 190 من سورة البقرة. فقطع الأشجار المثمرة هو عدوان واضح على جهة لا تنصب أي عداوة، وإيذاء فاضح لمصدر رزق جعله الله للناس كافة.

****

والمؤسف أن ظاهرة الانتقام الحقود لم تختف مع التقدم العلمي والمادي عند البشر. بل انتشرت أكثر فأكثر لا في الحروب وحسب بل في أيام السلم أيضاً . وانتشارها ظهر ويظهر على صور متعددة. أما في الحرب فتبدو على صورة إبادة شاملة للغابات والحقول والبساتين كما أكدت وكالات الأنباء وشهود العيان حين روت قصة الفواجع التي كانت تنزل بالشعب الفيتنامي خلال حربه مع الجيوش الأميركية . لقد كانت الطائرات الاميركية لا تقتصر على إلقاء القنابل على المقاومين بل كانت تقذف الغابات والأشجار المثمرة والبساتين والحقول بالنيران تبيد بها ما تستطيع إبادته من مصادر الخضرة والحياة. أما الموت الذي كانت تنزله على الأبرياء وعمليات الإبادة التي كانت تمارسها القوات الأميركية المسلحة للبشر والحيوان فهي لا تعد ولا تحصى.

والحربان العالميتان السابقتان كانتا مسرحاً لغارات شاملة لا تفرق بين إنسان وشجر ولا بين إنسان وحيوان ولا بين مقاتل وأعزل.

والشأن هو نفسه مع الأسف الشديد في الحروب الإقليمية التي اشتعلت بعد الحرب العالمية الثانية من أقصى الأرض إلى أقصاها . ولا ننسى قنابل الغازات السامة التي كانت تقذف في فترة من فترات الحرب العالمية الأولى.

وأما في مرحلة السلام فإنّ السياسة المتبعة في الدول المتقدمة مادياً كانت ولا تزال من وراء تجميد كل المشاريع الخاصة بإحياء الأرض وتشجيرها في بلدان العالم الثالث من أجل أن تبقى هذه البلدان أسيرة للدول الغنية تبتزها كما يحلو لها وتستغل حاجتها إلى الطعام تنفيذاً لأغراضها العدوانية.

ولهذه الدول المتقدمة وسائلها وأساليبها الظاهرة والخفية في تجميد مسيرة التنمية الزراعية في بلدان العالم الثالث الذي يمثل في الواقع القسم الأكبر من العنصر البشري.

****

هكذا يتبين لنا أنّ إبادة الغابات والأشجار المثمرة وأنواع النباتات خلال الحروب من ناحية وتعويق خطط التنمية في بدان العالم الثالث قصداً إلى ابتزاز هذه البلدان والحيلولة دون تنفيذها لخطة الاكتفاء الذاتي من ناحية أخرى ، هما الظاهرتان اللتان تقتحمان العيون في هذا العصر. العصر الذي يفتقد المحتوى الخلقي الكريم الذي جاءت به الشريعة الإسلامية والتي تمثلت في خطبة أبي بكر رضي الله عنه الخليفة الراشد الأول أمام أفراد جيش المسلمين.

****

هذه المعاني نقدمها بين يدى بعض الآيات الكريمة التى وردت في كتاب الله بشأن الأشجار والنبابات المختلفة. قال عزّ مِن قائل :

" وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(67) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68)ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(69) ".. سورة النحل.

" وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ " ..الآية 81 من سورة النحل.

" وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ(9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ(10) رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11)" ..سورة (ق) .

" وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ(18) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(19) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ (20)" سورة المؤمنون.

****

أول ما يلفت نظر القارىء المتدبر لكتاب الله ذلك الإلحاح على إبراز حقيقة أساسية في نظام الخلق، هذه الحقيقة هي أن رسالة السماء التي جاء بها عدد من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم هي رسالة إحياء .

في الآية 24 من سورة الأنفال نتلوا قوله عز وجل :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" ".

وإذاً فالغاية من الرسالة السماوية هي توفير أسباب الحياة للإنسان . وفي الآية 42 من سورة الأنفال نفسها نتلو قوله تبارك وتعالى وهو يتحدث عن بعض ما جرى يوم معركة بدر : " إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ".

الحياة والموت في هاتين الآيتين معنويان. إنهما ترمزان بالحياة إلى الإيمان وبالموت أو الهلاك إلى الكفر. والقرآن الكريم لا يتوقف في تعبيراته عند المعنى المجازي للحياة والموت . بل يضم إليهما المعنى الحقيقي . إنه يعبر بكلمة (حياة) عن ظهور الخضرة في الأرض . وهو يقارن بين ظاهرة إحياء الأرض وظاهرة إحياء الموتى، ويعلمنا أن الإعجاز فيهما واحد . فالله الذى يحيي الأرض بعد موتها بالماء الذي ينزله من السماء ، قادر على أن يحيي الموتى بعد فنائهم في باطن الأرض .

فملاك الأمر كله هو الحياة . الماء الذي ينزل من السماء يصدر الحياة بإذن الله .. والزرع الذي ينمو في الأرض الخصبة يتصف بالحياة .. والأشجار التي ترتفع شاهقة فوق الأرض تتصف بالحياة .. حتى السماوات والأرض يخاطبها الله عز وجل في وحيه كما يخاطب الكائنات الحية . وتجيبه السماوات والأرض على طريقة الكائنات الحية أيضاً . مصداق ذلك في قوله تبارك وتعالى : " ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ".. الآية 11 من سورة فصلت.

فهل نعجب بعد ذلك إذا كان الوحي السماوي قد أبرز فضل الله العظيم وجميل إنعامه وهو يتحدث عن ثمرات النخيل والأعناب التي يتخذ الناس منها سكراً ورزقاً حسناً ؟ وهل نجد أي غرابة حين يعقد صلة بين حياة الأشجار والنباتات وبين النحل الذي يضطرب متنقلاً بين بيوته في الشجر والجبال وفيما يعرشه الناس تمهيداً لخروج شراب شهي من بطونها فيه شفاء للناس ؟

ثم أليس أن الأشجار السامقة –يمنّ الله علينا إذ يحدثنا حديث النعم التي منحنا إياها– هي مصدر للظلال التي تفيء إليها حين تشتد حرارة الشمس في وقت الظهيرة ؟ فما عسى يصيب الناس حين يحرمون من الظل وقد كادت حرارة الشمس أن توردهم موارد التهلكة ؟

ويستأنف القرآن الكريم حديثه عن الشجر وأنواع النباتات حين يخبرنا أنّ الماء الذي تحيا به هذه النباتات وتلك الأشجار لا ينزل إلا بقدر معلوم . فإذا زاد عن الحاجة تحول إلى كارثة تهلك الحرث والنسل . وإذا قل عن الحاجة تحول أيضاً الى كارثة تهلك الحرث والنسل بسبب الجفاف والعطش.

والواقع أن الإنسان الأول الذي استقبل آيات الله عز وجل لم يكتشف كل مصادر الحياة في الشجر الأخضر والنباتات الخضراء . كان جل علمه فيها أنها مورد للرزق يتمثل في الفواكه ومختلف الثمرات كما يتمثل في أنواع الحبوب والبقول. أما اليوم فقد اكتشف ما لم يكن يخطر على بال آبائه وأجداده ، لقد تبين له أن الخضرة في الأشجار والنباتات هي التي تزوده بعنصر الأكسجين الذي لا سبيل إلى الحياة بدونه. لقد اكتشف أن من رحمة الله به أنه جعل من هذه النباتات والأشجار الخضراء ينبوعاً لا ينضب معينه للهواء النقي الذي يتنفسه . أفلا يجدر به وقد اكتشف كل هذه النعم أن يحافظ عليها ويسعى إلى الإكثار منها بالتزام الأساليب التي علمه الله إياها والتي جاءت الشريعة الغراء مؤكدة لأهميتها في الإبقاء على

أسباب الحياة في الأرض . حتى أنّ النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم قد طلب ممن يحمل فسيلة بيده يريد أن يغرسها في الوقت الذى تصطخب فيه الأكوان وتضطرب مؤذنة بقيام الساعة أن يغرسها لأن الغرس في ذاته عبادة لله عز وجل.

****

على أن النباتات والأشجار ليست قوتاً للإنسان وحسب بل هي أيضاً قوت للحيوان ورزق للنحل وأنواع كثيرة من الحشرات والطيور . وهل يمكن للإنسان أن يستغني عن الخدمات التي تقدمها الحشرات وهي تغتذي من أزهار النباتات والأشجار متنقلة من واحدة إلى أخرى . أوَليس أن هذه الحشرات هي التى تنقل الطلع من نبتة إلى نبتة تماماً كما تفعل الرياح اللواقح ؟ إن التكامل في الخلق هو الذي يجعل السلامة في بعضه مصدراً للسلامة في بعضه الآخر بأقدار موزونة ولأغراض محسوبة في حكمة الله من خلقه. إنها سلسلة من حلقات يأخذ بعضها برقاب بعض فإذا تعرضت حلقة منها للضياع أو الفناء فقد تعرضت السلسلة كلها للاضطراب والفوضى وانتهت من ثمّ إلى الهلاك.

لننظر إلى هذه السلسلة من البداية ولنتدبر الحكمة في ترتيب حلقاتها .. إنها تبدأ من الماء النقي العذب الذي يحمله السحاب على صورة بخار لا يلبث أن يتساقط وابلاً أو طلاً بمجرد أن يصطدم السحاب بطبقات من الهواء البارد .

فإذا بلغ الماء الأرض الميتة لم تلبث هذه الأخيرة أن تربو فتعود الحياة إليها وتخرج منها على صورة أشجار ونباتات فيها من كل الثمرات والفواكه أو البقول تقبل عليها الحيوانات المختلفة أو الحشرات والطيور فتستمد الحيوانات منها رزقها ثم تصبح هي بدورها رزقاً للإنسان . أما الحشرات التي ترتزق من الأشجار والنباتات فإن بعضها لواقح وإن بعضها الآخر ينتج العسل شراباً فيه شفاء للناس .

والجريمة الكبرى التي يقترفها الإنسان هي التي تحدث حين يقبل هذا الإنسان على إفساد أي حلقة من حلقات هذه السلسلة بسوء تصرفه أو قصر نظره أو خضوعاً منه لشهواته القريبة وأنانيته.

****

يبقى أن نتحدث عن الجانب الجمالي البهيج في الأشجار والنباتات المختلفة الألوان . يقول الله عز وجل في محكم تنزيله : " أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ " الآية 60 من سورة النمل.

ويقول تبارك وتعالى أيضاً : " وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ " الآية 5 من سورة الحج.

ثم نتلو قوله عز من قائل : " وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ "الآية 7 من سورة (ق).

****

يقول الجوهري في تفسيره لسورة البقرة من كتاب" الجواهر " : يطوف المرء في الحقول والغابات فينظر الأشجار والبساتين الغناء، وجمالها وعجائب خلقها ، وأزهارها الجميلة الفاتنة ذوات الرائحة الزكية العطرة والمادة الحلوة العسلية ، والحشرات طائفات من زهرة إلى زهرة ومن شجرة إلى شجرة. وبلا شك توجد حكمة في تلك الحشرات وطوافها والأزهار وألوانها والعسل في أسافلها . وأعلم أن هذا كله قد كشفه العلماء وبحثوا فيه في العصر الحاضر فوجدوا أن النبات فيه الذكور والإناث وتارة يكون الذكر والأنثى في زهرة واحدة .

ثم أنّ الذي ينقل طلع الذكور إلى الإناث إما أن تكون الريح وإما أن تكون الحشرات كالنحل. وقد جعل الجمال والألوان الزاهرة فيها لجلب تلك الحشرات، وهكذا الرائحة العطرة تدفعها إلى ورود هذه المناهل . وأما العسل في داخل الزهرة فإنما جعل ليكون غذاء للحشرة حاملاً لها على دخولها فإذا دخلتها حملت على جسمها من ذلك الطلع فتطير إلى زهرة أخرى فيقع ما في جسمها من الطالع عليها فإذا صادف أن كانت أنثى حملت بالثمرة المطلوبة . ووجود النباتات على هذا الوجه مصداق لقوله تعالى : " وأنبتنا فيها مِن كُلِّ زَوجٍ بَهيجٍ " وقوله : " ومِن كُلِّ شَيءٍ خَلقنَا زَوجَينِ لعَلّكُم تَذكُرون " وبذلك تؤدّي هذه الحشرات عملاً نافعاً للشجر فإنّها سبب في بقاء نوعه ودوام جنسه إلخ."..

****

هكذا يستبين لنا أنّ البهجة التي هي أثر الجمال ، والعطر الذي يمتع من يستنشقه ، ظاهرتان أخريان تضيفان جديداً إلى هذا النوع من المخلوقات وتمنحان الإنسان كما تمنحان الحشرات احساساً خاصاً يضفي على حياة الأحياء مزيداً من الطمأنينة والرضا ويجعل الدنيا أكثر إمتاعاً ويحقق الغاية من الخلق التي هي استمرار الحياة الصحية السليمة .

إن حب الجمال والإقبال عليه فطرتان أساسيتان فطر الناس عليهما ، فلا بدع أن يكون هذا الجمال المتمثل في الأشجار والنباتات الخضراء المزهرة جانباً من جوانب الجمال الكوني العام الذي حدثنا الله عنه في قوله تبارك وتعالى: " وزَيَّنّا السَّمَآءَ الدُّنيا بِمَصَابيحَ وَحِفْظاً ". فالسماء والأرض إذ يمسكهما الله عز وجل أن تزولا لا يكونان سبباً من أسباب البقاء الإنساني وحسب بل هما في الوقت نفسه مصدران من مصادر الجمال الذي تتزين به الحياة الدنيا.

فإذا قال الله في الآية 56 من سورة الأعراف " وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ " . فإنما يطالبنا بإلحاح بأن نتعرف على النحو الذي تحترم به فطرة الله في خلقه . ثم ألم يأن لهذا الإنسان الذي يتجاهل اليوم نعم الله عليه في السماوات وفي الأرض وما بينهما أن يرعوي عن غيه فيزرع مزيداً من الشجر بدلاً من أن يقطعه ومزيداً من النباتات الخضراء بدلاً من أن يترك الأرض قاحلة ميتة ، تعبيراً عن عرفانه بجميل عمل الله وشكراً له على ما أنعم عليه من جليل النعم التي لا يحصيها عد ولا يستوعبها حساب ؟

ولعلم المسلم الذي يتلو كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار ، ويذكره في صلاته اليومية ، أن يكون أكثر الناس وعياً بأهمية إحياء الأرض التي يدرج فوقها وهي كما نعلم تعاني الإهمال وتتعرض للجفاف بسبب إهماله وقصر نظره.

إن الثروة الحقيقية لا تتجمد في الأموال السائلة التي ينفقها العربي في الحصول على السلع المصنعة يستوردها من الخارج بل هي في الأرض التي يجب أن يبعث الحياة الخضراء فيها فيقاوم أضرار التصحر ويضع حداً للنزف الذي يعانيه بسبب تجاهله لدور هذه الثروة في حمايته من ابتزاز الأجنبي وتجنيبه أخطار الضغوط الخارجية التي تستغل حاجته إلى الطعام، مع العلم أن الأرض العربية هي أرض بكر قادرة بعد حرثها وإحيائها على أن توفر له كل أسباب السيادة والاستقلال في صنع مصيره وبناء مستقبله.

أما السبيل إلى تحقيق هذه الغاية الأساسية فهي في وضع خطة عربية شاملة يشترك في تنفيذها أصحاب المال من ناحية وأصحاب الأرض الصالحة للاستزراع والاستنبات من ناحية أخرى . وبذلك يستغني الجميع عن مدّ أكفهم إلى الأجنبي ويشعرون بالطمأنينة إلى مستقبلهم بفضل سياسة الاكتفاء الاقتصادي الذاتي.

****

ولا ننسى في هذه المناسبة أن القوة الاقتصادية الحقيقية في المستقبل المنظور لن تكون فقط قوة الاقتصاد الصناعي بل هي قوة الاقتصاد الزراعي . فقد يتمكن الإنسان من الاستغناء عن السلع الكمالية التي تصنع في الخارج ولكنه لا يستطيع الاستغناء أبداً عن الطعام الذي تخرجه الأرض والذي هو قوام حياته وشرط بقائه وطمأنينته على مستقبله .

إن المطلب هو مزيد من الرؤية الواضحة لأبعاد السيادة الحقيقية . كما أن المطلوب مزيد من الجرأة في اتخاذ القرار السياسي الذي يجند عزائم المواطنين على إحياء الأرض العربية الميتة وما ذلك على الإنسان المؤمن بحقه في الحياة الحرة الكريمة بعزيز.

المهم هو قراءة جديدة متأنية لما جاء في كتاب الله من الأوامر والنواهي والأخبار ، والصدق في تنفيذ ما ورد منا في هذا الكتاب السماوي الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من عزيز حكيم.

****

قد يعترض بعضهم على خطة إحياء الصحراء العربية بخاصة ويجد في الترويج لها نوعاً من المزايدات الإعلامية التي لا سبيل إلى تحقيقها . لكن الأبحاث العلمية التي أجريت على مناطق واسعة من صحراء المملكة العربية السعودية مثلا قد أثبتت جدوى هذه الخطة وكشفت عن الإمكانيات الواسعة التي يمكن أن تنتقل إلى خير الواقع.

1) لقد ورد في دراسة وضعت حول الأسس الخاصة بتشريع أحكام مشروع القانون الإسلامي لحماية البيئة في المملكة العربية السعودية نقلاً عن كتاب " الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز " ما يلي :

" وهنا ينبغي علينا أن نذكر أن من الأعمال الجليلة التي تمت في عهد جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله استيراد لأشجار الكافور والكازورينا لصدّ الرياح ولتشجير الطريق بين مكة وجدة " أنظر ص 11 من القانون المشار إليه أعلاه.

2) أما الدراسة الجادة التى تمّ بها مسح شامل لأراضي المملكة العربية السعودية فقد ورد الحديث عنها في كتاب "ولادة مملكة " تأليف المؤرخ الفرنسي "بنوا ميشان " جاء فيها : " أن مؤسس المملكة الملك عبد العزيز رحمه الله كلف لجنة من الخبراء الزراعيين الفرنسيين للقيام بعملية مسح شامل لأراضي المملكة أو تقدير صلاحية تربتها لأنواع الزراعة . وقد قامت اللجنة المذكورة بالمهمة الموكلة إليها . وبعد عدة شهور من العمل المتواصل وضعت تقريرها الختامي الذي جاء فيه أن في وسع المملكة أن تحيي من الأرض ما تبلغ مساحته 5،4 مليون من الهكتارات ما يساوي عشرة ملايين فدان مصري .

ويضيف مؤلف الكتاب أن الإدارة المسؤولة في المملكة قامت بتجربة خاصة في إحدى القرى النجدية لإحياء منطقة من الأرض المحيطة بها فكان نجاحها الكبير مصدر دهشة للمهندسين الزراعيين الذين استطاعوا بفضل هذه الأرض البكر وبتطبيق الأساليب العلمية أن يحصدوا عشرين موسماً من البرسيم في عام واحد.

ومما ورد في كتاب " ولادة مملكة " أيضاً أن اللجنة قد عثرت على عمق 1400 م من سطح الأرض على بحر من المياه العذبة بطول 900 كيلو متر وعرض 500 كيلو متر يمكن استخراجها لسقي التربة.

كما أخبرني مزارع كويتي من آل " الربعي " يملك أراضي زراعية في منطقة القسيم بأن المياه الجوفية فيها من الوفرة بحيث نستطيع أن تلبي حاجات التوسع الزراعي بكل أشكاله.

وقد وقع هذا التوسع فعلاً فأثبت أن في الإمكان مضاعفة الثروة الزراعية في المملكة مرات عديدة.

ولعل أبرز الدلائل على ضخامة هذه التوسع أن محصول القمح الأخير في المملكة يمكن البلاد من تصدير 300 ألف طن من هذا المحصول زيادة على مليون طن تستهلك للحاجات المحلية.

ولا ننسى أن دولة الكويت قد حققت في ميدان التوسع الزراعي نجاحات لافتة للنظر رغم حداثة عهدها بالنهضة الزراعية . وأن ما يبذل من الجهود لتشجير مناطق واسعة من البلاد يبشر باحتمالات تقدم واسعة فيما لو ضوعفت المخصصات اللازمة لذلك.

****

المهم في هذا الموضوع أن توضع استراتيجية طموح في ظل الاعتقاد بأن القوة الاقتصادية الحقيقية في المستقبل ستكون بخاصة في الميدان الزراعي بعد تكاثر عدد السكان وبعد ما تعرضت وتتعرض له البلاد العربية بعامة ومنطقة الخليج والصحراء العربية بخاصة من الضغوط التي تمارسها الدول الأجنبية المتقدمة زراعياً.

فليكن شعارنا نحن العرب منذ اليوم : " لنبحث عن القوة في إحياء الأرض قبل كل شيء "...

البيئة البشرية أو حق الجوار

إنّ مفهوم البيئة عندنا أوسع من أن يستوعب العناصر التي سبق أن تحدثنا عنها . ذلك لأن مصير هذه العناصر ليس مرتبطا بفرد بعينه ولا بقرية أو مدينة بعينهما بل هو مرتبط أيضاً بفن التعامل بين الناس جميعا.

إن إصلاح فرد من الناس للأرض وغيرها وحرصه على تجنيب البيئة أخطار التلوث لا يبلغان أغراضهما ما لم يكن التعاون وثيقاً بين الفرد وجيرانه، أو بين الفرد ومن يشاركهم في التعامل مع العناصر المتعددة للبيئة .

****

ولذلك حرص الإسلام حرصاً شديداً على تثبيت روح التعاون وتوثيق صلة الأخوة بين الفرد وجاره أو بين الفرد ومن يشاركهم في صنع الحياة العامة . بل حرص الإسلام على تحقيق ما وراء ذلك حين لم يقتصر على إعلان الأخوة بين المؤمنين وحسب بل قدم بني آدم كلهم على أنهم بشر مكرمون من حقهم أن يتمتعوا بنعم الله ويتساووا في الإفادة من رزق الله بغض النظر عن عقائدهم التي لا يحق لأيّ من الناس أن يحاسبهم عليها . فالله عز وجل هو وحده الذى يفصل بين الناس لأنه وحده يعلم ما في القلوب من أسرار. فإذا قال الله عز وجل : " إنّما المؤمنون أخوة " الآية 10 من سورة الحجرات فقد قال أيضاً : " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا "الآية 70 من سورة الإسراء . كما قال أيضاً مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم : " وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ " الآية 99 من سورة يونس . و" إن عليكَ إلّا البَلاغ " الآية 48 من سورة الشورى . ويتأكد القصد من هذا التوجيه السماوي في قوله عز مِن قائل : " لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ".. الآية 256 من سورة البقرة .

وإذا كان الله عز وجل قد ساوى بين الناس في الحصول على الأرزاق والإفادة من نعمه الكثيرة وحرم إكراه أحد على الدخول في دين الله فلأنه العالِم بأسرار القلوب وبالتالي هو المرجع الوحيد للفصل بين الناس، فهو يقول لكل من يجب أن يسمع : " وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ " الآية 3 من سورة الأنعام .

وهكذا يترتب على هذه الآية وغيرها مما جاء في معناها أن لا حق لأحد أن يتدخل في شؤون القلوب وما تكنه من العقائد فهي شأن إلهي وحسب.

****

في ضوء ما سبق ندرك أن الحياة الدنيا لا تصلح إلا بحسن الجوار بين المتجاورين ، وتبادل الاحترام بين البشر كلهم الذين يستوون في عبوديتهم لله عز وجل . وها نحن أولاء نورد بعض ما جاء في الجوار والجار على أساس أن التعاون الصادق الذى تتم به صيانة الحياة ومصادرها في الأرض وغيرها من العناصر البيئية هو حصيلة الجوار النظيف والجار الطيب المستقيم .

فما هو إذاً واجب المسلم تجاه غيره من أفراد مجتمعه ، ممن يتعاون معهم على ممارسة حياته وحياتهم ؟ هذا الموضوع قد أصبح من الأهمية والخطورة بحيث أن حدود المسؤولية فيه لا تقف –كما قلنا غير مرة– عند فرد أو أفراد قليلين بل عند المجموعة البشرية كلها والتي ترتبط بسلسلة طويلة من حلقات الجوار . وطبيعي أن ما يفرضه حسن الجوار على المستوى الدولي هو نفسه ما يفرضه حسن الجوار على المستوى الفردي أو ما هو فوق ذلك . وللجوار اليوم فى أبعاده كلها أهمية خاصة لأن المفاعلة بين البشر وتبادل المنتجات والآثار الناجمة عنها قد بلغت من الاتساع الأفقي والعامودي مبلغاً يجعل أي إساءة في أي مكان من الأرض مصدراً للأساءة في كل مكان آخر.

إنّ التقدم الصناعي كمثال على ذلك أدى في العقود الأخيرة من هذا القرن العشرين الى تلوث مطرد الزيادة في المياه الجوفية ومياه الأنهار والبحيرات والبحار والفضاء القريب بخاصة وإلى تلوث التربة الزراعية مما يشكل خطراً داهماً على الموارد الطبيعية التي يستند البشر إليها في معاشهم .

ومن هنا تبرز أمامنا حقوق الجماعة على الفرد كما تبرز حقوق كل فرد على الجماعة في ضوء ضرورة التعاون والتكافل على كل من مستوى الأفراد ومستوى الدول .

التعارف والتعاون :

القاعدة الأساسية التي ترتفع فوقها كل بنية اجتماعية هي قاعدة التعارف والتعاون بين الأفراد بعضهم والبعض الآخر وكذلك بين القبائل والشعوب . ورد هذا المعنى في قوله جل وعلا في الآية 13من سورة الحجرات : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " .

لعلنا هنا في غير حاجة الى التعقيب على هذه الآية الكريمة أو أن نثبت ما ورد حولها من التفاسير عند مشاهير المفسرين، ففي إثبات أقوالهم إطالة لا ضرورة لها لسبب بسيط جداً هو وضوح المعنى في الآية الكريمة الى الدرجة التي لا تعود معها حاجة إلى مزيد من الإيضاح ولذلك نقتصر على تسجيل الملاحظة التالية : –

" ما دام أن الناس قد خلقوا من ذكر وأنثى وقبائل وشعوب ليتعارفوا فإن التقوى الواردة في هذه الآية تستوعب فيما تستوعبه الالتزام بالغاية التي قصدت إليها العناية الإلهية حين قدرت خلق الناس من ذكور وإناث وشعوب وقبائل. فمن التقوى إذاً أن ينعقد التعارف بين الناس المؤمن منهم وغير المؤمن ومن ثم أن يتحقق التعاون لا في ضوء العقيدة الدينية المشتركة وحسب بل في ضوء الخصائص الإنسانية المشتركة.

****

والواقع أن حاجة الناس كلهم إلى التعاون على إحياء الأرض واستنبات الزرع والحفاظ على طهارة الماء وسلامة الحيوان ونقاوة الطبقات الجوية الهوائية هو ضرورة حياتية أساسية للجميع . إذ لا تتم للمجتمع بل لأي جماعة مشتركة في المدينة أو القرية أو حتى المزرعة المقاصد المطلوبة من الوجود الإنساني ما لم يكن التعارف مدخلاً لظاهرة التعاون والتكافل والتضامن في الحفاظ على ما فطره الله من خلقه وسخره للإنسان في أرضه وفضائه .

ولما كان التعاون المطلوب خدمة للحياة والأحياء لا يتم إلا على درجات متفاوتة من القرب والبعد فقد حرصت الشريعة الإسلامية على توكيد اهمية الجوار وتوثيق العلاقة بين الجيران توثيقاً يحول دون أن يحدث فيه أي تشقق أو أن يتعرض لأي شرخ تشل بهما مسيرة التقدم .

****

وفي الأدب القرآني كما في الأدب النبوي نصوص وأخبار كثيرة تحض على المناداة بالمساواة التامة بين البشر كما تحض على احترام حق الجار وحرمة الجوار .

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في خطبة الوداع موجهاً كلامه عبر أنصاره إلى الناس كافة : " أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ..ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم . قال ليبلغ الشاهد الغائب .

فالناس إذاً لا يتفاضلون في شؤون الدنيا لأنّ للجميع حقوقهم المشروعة في حياة آمنة وفي الحصول على الكفاية والعدل . أما التفاصيل فهو في الشؤون الدينية . وهذه الشؤون لا يفصل فيها الناس بل الحكم الفصل فيها هو الله عز وجل يوم يقوم الحساب.

فلا يسعين أحد إلى إيذاء جاره أو المشارك له في مجتمعه بدعوى أنه مؤمن بينما جاره غير مؤمن . ففي هذا الإيذاء عدوان على الإيمان نفسه الذي يظن أنه يمنحه فضلاً على سواه.

****

إن الجوار في الإسلام لا يعني غير شيء واحد هو التكافل والتضامن في توزيع المنافع المترتبة على نعم الله في الأرض وفي السماء . وقد أدرك فقهاء المسلمين أبعاد المفهوم من الجوار كما لم يفهمها من سبقهم من المصلحين والمشرعين. فهذا هو الشاطبي في الجزء الثاني من كتابه " الموافقات " يقول : " المصلحة العامة مقدّمة " . ولما كانت حقوق الجوار تعبيراً عن المصلحة العامة فقد وجب على صاحب المصلحة الخاصة أن يحترم هذه الحقوق وإن اضطر إلى التنازل عن بعض مصالحه الخاصة .

وجاء في أصول الفقه الإسلامي أنّ كل حق فردي مشوب بحق الغير . وليس لذي حق خيرة فى إسقاط حق الغير بل اعتبره علماء الأصول (حق الله) في كل حق فردي.

" وليس المقصود بالمحافظة على حق الغير عدم الاعتداء أو تحريم المجاوزة فحسب ، لأنّ هذا مقرر في جميع الشرائع ولأنه فعل محرم في ذاته لخروجه عن حدود الحق الموضوعية ، بل المراد أن حق الغير محافظ عليه شرعاً لبيان استعمال الفرد

لحقه كسباً وانتفاعاً وممارسته إياه ولو ضمن حدوده الموضوعية وإهدار حق الغير في هذه الحال يعبر عنه بسوء استعمال الحق ". انظر مقالة د . فتحى الدريني في مجلة أسبوع الفقه الإسلامي الثالث بالقاهرة .

إنّ قوله عليه السلام " لا ضرر ولا ضرار " قاعدة تعلو عن مستوى العدل إلى مستوى الإحسان . فقد يكون من حق مالك الأرض أن يفعل بملكه ما يشاء . لكنّ هذا الحق قد يعود بالضرر على جاره . فالإحسان هنا يفرض الامتناع عن استعمال هذا الحق احتراماً لحق الجار عليه.

لقد بسط علماء المسلمين القول في جملة الأحاديث النبوية الشريفة الخاصة بحق الجار وضرورة احترام الجوار كنتيجة حتمية للمقاصد التى خلق الناس لبلوغها وفي مقدمتها التعارف والتعاون . وفي مقدمة هؤلاء العلماء الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه " إحياء علوم الدين " وابن قدامة في كتابه " المغني " والشاطبي في كتابه " الموافقات " والامام أحمد بن حنبل في كتابه " المسند " وغيرهم.

****

الجوار في الأدب القرآني : –

أما الوحي السماوي الذي جاء فيه قوله جل وعلا : " ما فرّطنا في الكتابِ من شيء " وقوله : " اليوم أكملتُ لكُم دينكم وأتمَمْتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً " . فقد تحدّث عن حق الجار على الجار وواجبه في الآية 36 من سورة النساء (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا "..

هذه الآية الكريمة جامعة مانعة لكل ما فرض على الإنسان أن يراعيه ويرعاه ويلتزم له في قلبه وجوارحه. وقد وردت تفصيلات هذا الغرض بالترتيب الذي نعرفه لكتاب الله في عرضه للأوامر والنواهي تبعاً لأهمية كل منها وخطره في حياة العباد .

فالعبادة لله الواحد أولاً ثم يأتي بعدها البر بالوالدين فالإحسان إلى ذي القربى واليتامى والمساكين ثم يأتي دور الجار مفصلاً، فهناك الجار ذو القربى والجار الجنب بعده ثم الصاحب بالجنب وأخيراً ابن السبيل وما ملكت يمين المسلم.

****

وموضوع الجار هو بيت القصيد في الآية الكريمة التى استشهدنا بها . وتفصيل مفهوم الجوار جاء في حديث نبوى شريف ورد فيه قوله صلى الله عليه وسلم " الجيران ثلاثة: جار له حق واحد وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق". فالجار الذي له ثلاثة حقوق هو الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم . وأما الذي له حقان فهو الجار المسلم، له حق الجوار وحق الإسلام . وأما الذي له حق واحد فهو الجار المشرك.

ويقول صلى الله عليه وسلم " أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً " ويقول : " ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " ويقول أيضاً : " لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه ".

****

فإذا كان الحديث الخاص بتفصيل أنواع الجيران مفسراً لما ورد في الآية القرآنية المذكورة أعلاه قد ميز الجار صاحب الحق الواحد بما أثبتناه فى الأحاديث الثلاثة التالية فكيف تكون حرمة الجار صاحب الحقين والجار صاحب الحقوق الثلاثة ؟! .

إنّ فى وسع المتدبر لهذه الروايات أن يستوعب بنفسه أهمية الجار والجوار في مسيرة الحياة الدنيا. ولا ننسى أن الجوار اليوم ، بعد تقاصر المسافات في الدنيا لم يعد وقفاً على الجار الملاصق مادياً لجاره بل أصبح ينسحب على الدنيا كلها لأنّ الاشتراك في الحياة والتأثر المتبادل بين تصرفات من كانوا يعتبرون متباعدين من قبل هما اللذان مدا حدود الجوار حتى غدا سكان الكرة الأرضية كلها مجموعة من الجيران بفضل اشتراكهم فيما يصيب الحياة الدنيا من خير وشر وصلاح وفساد.

فهل من حرمة الجار أن تلوث الأرض ومياه البحار والأنهار والسحاب المسخرين السماء والأرض والأشجار والنباتات والحيوانات ؟

وهل من حرمة الجار لجاره أن يستقل بعض الناس بكل شيء وأن يختزنوا نعم الله في الارض لأنفسهم ويجعلوا منها وسيلة ابتزاز لمن حرموا منها بسبب ضغوط مارس المحتكرون للنعم جلّها إغراقاً منهم في حرمان الضعفاء من حقهم في الحياة الكريمة ؟

وهل بدأت دنيا الناس تتعرض للتلوث على أنواع إلا منذ ظهرت خطط الاحتكار العالمي ورافقتها سياسات الابتزاز والمساومة على حساب العدالة والحق ؟

****

في ضوء ما سبق ، وانطلاقاً من المفهومات الموسعة لمعنى الجوار والجار يمكن أن ندرك حقيقة موقف الشريعة الإسلامية من هذه المفهومات ونكتشف مدى حرصها على حماية البيئة بكل أبعادها لتبقى مصدر خير ومنفعة لجميع الناس .

رمضان لاونـد

ملاحظـة : –

يجدر بي أن أذكر بأن عدداً غير قليل من الشواهد قد اقتبسته من التقرير الخاص بمشروع القانون الإسلامي لحماية البيئة في المملكة العربية السعودية والذي أسهمت في إدخال كثير من التعديلات عليه بتكليف من أحد الأصدقاء يمثل مؤسسة ألمانية غربية ذكر لي أنها تتابع مفهوم البيئة وعلاقته بالشريعة الإسلامية .

ثبت بالمراجع

- **القرآن الكريم .**
- **السنة النبوية .**
- **تفسير القرطبي.**
- **تفسير الطبرى .**
- **تفسير ابن كثير.**

- تفسير الرازى الجصاص.
- تفسير سيد قطب.
- المهذب للشيرازي .
- سنن أبي داود .
- سنن الترمذي .
- صحيح مسلم .
- مسند ابن حنبل.
- المغني لابن قدامة .
- تفسير الجوهري .
- مشروع القانون الإسلامي لحماية البيئة في المملكة العربية السعودية .
- ولادة مملكة – بنوا ميشان .
- كتاب الصيد للسرخسي .
- المنتقى – شرح موطأ مالك للباجي .
- صورايخ عبر الفضاء لأحمد الجبيلي .
- الموافقات للشاطبي.
- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي.

أجواز الفضــاء

إذا كانت خصوبة التربة وغزارة الثمرات ، ووفرة النباتات ونقاوة المياه ، وتوالد الحيوانات ، شروطاً أساسية لحمل أمانة الحياة الدنيوية ، والحفاظ على أسباب الرزق الذي تمنحنا إياه العناية الإلهية ، فإنّ الطبقة الجوية التي تحيط بكرتنا الأرضية المتواضعة لا تقل أهمية في توفير أسباب الحياة عن العناصر المذكورة قبلها.

بل إن في وسع الإنسان أن يصبر على حرمانه من الطعام أياما كثيرة وعلى حرمانه من المياه مثل ذلك ، لكنه لا يستطيع أن يصبر على حرمانه من الهواء المنتشر في هذه الطبقة الجوية دقائق قليلة . إنه لا يلبث بعدها أن يحس بالاختناق وأن يشعر بانسحاب الحياة من جسده وبعجزه المطلق عن البقاء .

****

والجدير بالذكر أن الخالق جل وعلا هيأ الأسباب بحيث تبقى الطبقة الجوية التى ينتشر فيها الهواء "اكسير الحياة الأساسي" محيطة بكرتنا الأرضية ، تزودنا بالأنفاس التي لا سبيل إلى العيش بدونها حتى في مدى دقائق قليلة . ومن عناية الله بنا أن جعل من اليخضور " الكلوروفيل " مادة يتجدد بها الأكسجين في هواء هذه الطبقة الجوية فتتجدد معه مصادر الحياة الصحية .

والله بفائق حكمته ، ودقة صنعه أحاط هذه الطبقة الجوية بحزام خفي يحول دون نفاذ الأشعة الكونية إليها. وهي أشعة قاتلة لو أنّ هذا الحزام الذي يحيط بالكرة الأرضية قد انخرم أو لم يعد قادراً على حماية ما دونه. لكن العناية الإلهية التي وضعت حساباً لكل صغيرة وكبيرة قد جعلت من هذا الحزام رغم خفائه شيئاً أشد صلابة من الفولاذ وأقدر على مقاوة الأشعة الكونية المميتة من أعظم قلاع الأرض.

إنّ المعلومات التي تلقاها العلماء من الأقمار الاصطناعية تشير إلى أن قوة الأشعة الكونية تزيد اثنتي عشرة في طبقة الاكزوسفير منها على سطح الأرض ، مما يؤكد أن تلك الطبقة يكمن فيها كل الهلاك للإنسان.

وبمناسبة الحديث عن طبقة الاكزوسفير تبين أن الارض محاطة بثلاثة أحزمة تقف دون نفاذ الأشعة الكونية وهي كلها خفية لأنها في حالة غازية غير مرئية . الأول منها يدعى بحزام " فان المن " على اسم مكتشفه وهو على علو 200 ميل

من الأرض، والثاني على علو يتراوح بين 5000 و 35000 ميلا ، أما الثالث الذي اكتشف أخيراً فهو على علو 50000 ميل .

والأشعة الكونية أنواع متعددة فهناك أشعة غاما ثم الأشعة ما وراء البنفسجية ، وهما خطرتان . لكنهما وغيرهما لا يصل منها إلى الأرض إلا النزر اليسير الذي لا خطر منه.

واستكمالاً للمعلومات الخاصة بالهواء الجوي الذي يمنح الإنسان نفحة الحياة بتنفسه له نذكر أن الطبقة الجوية الهوائية تحتوي على عدد غير قليل من الغازات كالأوكسجين والنيتروجين وديوكسيد الكربون " أي ثاني أكسيد الكربون " وهي منتشرة بكميات مقدرة خرجت من يد الله بنسب متوازنة، يشير إلى ذلك قوله عز وجل " وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا "(الفرقان/2) .

****

وكما أن الغازات في الطبقة الجوية منتشرة بأقدار معلومة حفظاً لحياة البشر والحيوان والنبات فقد أثبت العلم الحديث أن هذه الطبقة الجوية هي في الواقع أربع طبقات .

1) طبقة الترابوسفير : وهى تحتوي على تسعة أعشار الهواء المحيط بالكرة الأرضية . وفي هذه الطبقة تتشكل الغيوم ويتشكل معها طقس المناطق التي نعيش فيها . وحدود هذه الطبقة تبتدىء من سطح الأرض وتنتهي على علو عشرة أميال منها.

2) طبقة السراتوسفير : وفي هذه الطبقة يقل الهواء ويصعب التنفس لقلة كمية الأوكسجين فيها . وهي تبتدىء من علو عشرة أميال إلى خمسين ميلا فوق سطح الأرض .

3) طبقة الايونوسفير : في هذه الطبقة تستحيل الحياة دون استعمال الأوكسجين للتنفس ، لأن الهواء يكاد يكون فيها معدوماً. وتمتد هذه الطبقة إلى علو ستمائة ميل . والسماء فيها قاتمة رغم سطوع الشمس .

4) طبقة الاكزوسفير : وهذه الطبقة لا تحتوى على الهواء أو الغاز وهي شديدة الظلام وتمتد حدودها من علو ستمائة ميل إلى ما فوق ذلك حيث مواقع الشمس والقمر والنجوم البعيدة . انظر ص 69 – 72 من كتاب " صواريخ عبر الفضاء " تأليف أحمد الجبيلي .

هذا الخلق العجيب الدقيق في صنعه ، والفائق في تقدير الأجزاء التي يتألف منها ، أخرجته لنا العناية الإلهية ليكون مصدر عيش لنا شرط ألا يتعرض لأي نوع من أنواع التلوث الذي يهدد بالقضاء على توازناته الداخلية .

والأمانة الموكولة للإنسان في هذا المجال تفرض عليه الامتناع عن كل ما يخونها أو يتجاهل المسؤوليات المترتبة على حملها.

فالقضاء على الخضرة التي جعلت منها العناية الإلهية مصدراً لتزويد الطبقة الجوية الهوائية بما يستهلك من غاز الأوكسجين فيها هو خيانة للأمانة وتجاهل لمسؤوليات الإنسان نحوها.

والواقع أن الإنسان لم يتردد في إشعال الحروب واصطناع الحرائق سيراً وراء شهواته غير مبال بحق هذه الطبقة الجوية الهوائية في التزود من غاز الأوكسجين . وبدلاً من أن يضاعف جهوده في استزراع الأرض بالأشجار والنباتات الخضراء المختلفة فإنّه ينفق أكثر ما يبذل من الجهد في غير هذا الميدان .

وفي الوقت نفسه يستكثر من إنتاج المحركات المستهلكة للأوكسجين بعشرات الملايين دون أن يضع حساباً لقانون التوازن في الطبقة الجوية الهوائية ، ذلك أن هذه المحركات تنفث مع حرائق الحروب وغير الحروب غاز " ثاني اكسيد الكربون " الذي ينتشر في أجواز الفضاء فيكون مصدراً خطيراً للتلوث .

****

وإذا كانت العناية الإلهية قد حمت طبقتنا الجوية الهوائية ومن تحتها من النبات والحيوان والبشر بالأحزمة الخفية الغازية التي تحدثنا عنها قبل قليل ، فإنّ جنون الإنسان في مسيرته العلمية العشوائية وخضوعه لجنون التسلط والقوة العمياء لم يتردد في تلويث الجو الأرضى بالأشعة الكونية المميتة حين نجح في تفتيت الذرة . وبدلاً من أن يستخدم هذا الكشف

العلمي للأغراض السلمية على خطورته فقد دفعه جنون التسابق إلى التسلط والقوة إلى تصنيع القنابل الذرية والهيدروجينية وتفجيرها في تجارب يجريها في باطن الأرض أو فوق سطحها غير مبال بالأشعة المميتة التي تصدر عن تفجيراتها الرهيبة.

ويقال أن قوة التفجير الذري والهيدروجيني التي يختزنها الإنسان في صوامع صواريخه وترسانات أسلحته تستطيع أن تقضي على الحياة في الأرض كلها، لا مرة واحدة بل سبع مرات على الأقل .

وقد قُدّرت أبعاد هذا التلوث الخطير بهذه النسبة الرهيبة قبل عدد من السنوات لكن هذه النسبة اليوم تبلغ أضعاف ما كانت عليه قبل هذا العدد من السنوات . وليس في الأفق ما يدل إلى توقف الإنسان عن سياسته المتبعة في تصنيع المزيد من هذه القنابل المهلكة.

****

فهل من الأمانة للحياة التي فطرها الله عز وجل وسخر السماوات والأرض وما بينهما لخدمة الأحياء أن يتسابق الناس إلى الإكثار من إشعال الحروب وإهمال استزراع الأرض بالأشجار والنباتات الخضراء ، ومن ممارسة التجارب الذرية والهيدروجينية بدافع الرغبة في التسليط أو التنافس في الحصول على مصادر القوة العمياء ؟

إن الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان قد كشفت كما جاء في قوله تبارك وتعالى تعقيباً على هذا الحمل ، معلناً عن جهالة الإنسان وغروره بالإقدام على حمل هذه الأمانة : " وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا"(الأحزاب/72)..

نعم هو اليوم يضيف ظلماً جديداً إلى سابق ظلمه لنفسه حين يقدم على إحداث مثل هذا التلويث ، كما يكشف عن جهله الغريب بالنتائج الخطيرة التي تنعكس عليه وبالاً وبؤساً بسبب سوء تصرفه .

****

لقد ظهرت الحياة على الأرض مزودة بالنعم الإلهية التي لا تحصى لتبقى مصدر متعة خالصة لبني الإنسان، تتصف بالجمال والخصوبة والطهارة والتوازن الذي فطرت عليه . لقد ظهرت لتكون صورة لروضات الجنات كما يصورها لنا الوحي

السماوي . وظهرت لتكون نموذجاً يتجسد به السلام وتتجسد فيه الهناءة ويتعايش فيه البشر وهم على سرر من السعادة متقابلين .

****

قد يظن بعض الناس أننا لسنا من دعاة التقدم العلمي . وأننا نطالب بالحدّ من الأبحاث وإجراء التجارب العلمية على اختلافها، وهذا غير صحيح . فالله في وحيه السماوي يحض الإنسان على السير في الأرض والتعرف إلى قوانين الخلق وأسراره لكنه في الوقت نفسه يطالب عباده بالإحسان في استخدام الإنجازات العلمية ويحضه على الالتزام لشروط الأمانة التي حملها حين عرضت عليه من لدن الله عز وجل . والالتزام هنا يعنى موازنة القوة التي يوفرها الكشف العلمى بالأخلاق التي تمكنه من حفظ الحياة .

فالعلم سلاح .. لكنه سلاح يفتقد وازع القيم . إنه بارد برودة السيف والوسيلة الوحيدة التي تجعل منه أداة لخدمة الحياة والحفاظ عليها اسجابة لأمر الله عز وجل هي التسلح بالقيم الخلقية الرفيعة التي يستلهمها الإنسان ويستضيء بها في طريق الحياة من الإيمان بالله عز وجل . الإيمان الذي يحضه على العدل ويغذي فيه مشاعر الرحمة والأخوة ويدفعه إلى التعاون مع ناس الأرض كلها.

****

والواقع أن سلاح العلم في عالم الإنسان اليوم وكأنه السلاح المميت في يد طفل يلعب به، لعبة خالية من الذكاء فاقدة لكل شروط السلامة.

إن إنسان اليوم وهو يتخيل أنه قد أمسك بزمام الدنيا بين يديه يذكرنا بفرعون كما وردت قصته في كتاب الله حين قال لمن حوله : " أنا ربكم الأعلى " لكن هذا الرب المزيف لم يلبث حتى وجد نفسه ضعيفاً مهيناً كسير النفس حين كادت أمواج البحر المنغلق بعصا موسى عليه السلام أن تنغلق عليه وتورده موارد التهلكة فجاءه الخوف من كل مكان وبلغ قلبه وقلوب أشياعه من عبيده التراث وقال بعد فوات الأوان : " آمنت برب موسى وهارون" ...

فماذا بعد الغرور غير الضياع ؟ وماذا بعد الكفر غير الضلال ؟ وماذا بعد اقتراف الجريمة غير العقوبة الصارمة ؟ وصدق الله في محكم تنزيله : " فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ " (الحج/46).

الصحراء الحارة والسهــوب الثلجيــة

إذا صح أن للوجود قانوناً واحداً يتميز بالوحدة والبساطة رغم تكاثر المظاهر التي يعبر بها عن ذاته، فقد وجب أن تخضع كل هذه المظاهر للمعطيات الحتمية التي يفرضها هذا القانون.

ولكن إدراك هذه المعطيات الحتمية يفرض علينا تعيين الأبعاد الحقيقية لهذا القانون العام.

كان لافوازيه أول من نادى بالحقيقة القائلة " أن لا شيء يخلق ولا شيء يفنى بل كل شيء يتحول " . وسرت هذه الحقيقة في عقول العلماء والفلاسفة على امتداد القرن التاسع عشر تدعمها الانتصارات العلمية المادية التي اكتشفت ظاهرة التحول البارزة في كل شيء . واعتبرت التغيرات السارية تغيرات في الأخلاط التي تدخل فيها العناصر الأساسية البسيطة .

لكن قانون لافوازيه لم يلبث في آواخر القرن التاسع عشر حتى اصطدم بظاهرة جديدة قلبت معادلته رأساً على عقب فنادى بيكارل العالم الفيزيائي وجماعة الباحثين في ميدان الذرة بقانون جديد خلاصته " لا شيء يخلق ولكن كل شيء يفنى " . وانتزعت هذه الحقيقة الجديدة اهتمام العلماء والباحثين واتخذ الوجود بها وجهاً جديداً يكاد يتعارض مع الوجه التقليدي السابق الذي تبنّته الدوائر الفكرية والفلسفية.

إن النظرة التشاؤمية هي التي بدأت تستغل باهتمام المفكرين وتضفي على التاريخ نوعاً من التفكير الجدلي بدا في فلسفة هيغل على صورة التناقضات التي بسطتها هذه الفلسفة كما يلي :

" موضوع – نقيض موضوع – موضوع جديد "..

كل موضوع يصطدم بنقيضه ثم لا يلبث هذا النقيض حتى يفنى به الموضوع ليخرج من ظاهرة الفناء هذه موضوع جديد . وتستمر عملية الولادة في سلسلة لا تنقطع حلقاتها في كل ميدان من الميادين وعلى كل مستوى من مستويات المادة الجامدة والنبات والحيوان.

وهي حقيقة تلقفها كارل ماركس وحاول في ضوئها أن يجمع الشواهد والوقائع في ميدان الاقتصاد والاجتماع وأعلن في ضوئها حتمية توقف التناقضات عندما تنتصر طبقة البروليتاريا فتنتزع الوسائل الإنتاجية من الطبقة البورجوازية سبق لها أن انتزعت المبادرة من طبقة الأمراء والنبلاء .

ومضى كارل ماركس يختار ما يلائمه من الشواهد المدعمة لوجهة نظره ، وحاول أن يقنع نفسه وقراءه بأن مجرد انتقال ملكية الوسائل الإنتاجية من طبقة إلى طبقة كان لإيقاف مسيرة القانون العام الذي يضم كل الوجود ابتداء من المادة الجامدة وانتهاء بأعلى مراحل الحياة المجتمعية.

وقد غرب عن بال كارل ماركس بأن المعطيات الحتمية التي نقلت المبادرة من طبقة النبلاء إلى طبقة البورجوازيين والتي حققت هذه النقلة بعد ذلك من طبقة البورجوازيين إلى طبقة البروليتاريا هي نفسها التي ينتظر تحت ضغط القانون العام أن تنقل المبادرة من البروليتاريا المتمثلة في طبقة حاكمة جديدة إلى طبقات أخرى لاحقة يستمر تتابعها باستمرار ظاهرة الاستهلاك الذاتي التي يسببها ارتفاع مستوى العيش والعملية الحضارية بالذات.

وليس أدل على ذلك من أن طبقة البروليتاريا التي انتزعت الحكم في عدد من الدول ولا سيما في الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية قد تحولت هي بدورها إلى معسكرين كبيرين حتم ظهورها التباين في مستوى العيش وتطور الإنتاجية في كل منهما.

إن الاتحاد السوفياتي الذي انتقل من الستالينية المتطرفة المنادية بالثورة العالمية إلى الخردتشيفية المعتدلة والمنادية بمبدأ التعايش السلمي مع النظام الرأسمالي ، لم يصدر بالطبع عن نظرية ماركس التي تنادي بوحدة الثورة العالمية وبتوقف هذه الثورة عند شيوع النظام الماركسي في العالم كله بل صدر عن الحتمية الجدلية التي تتكون بها عقلية المعسكرات في ضوء الصراع بين الفقراء والأغنياء أكانوا أفرادا أو كانوا دولاً . أما النظام المتشابه بغض النظر عن أي اعتبار آخر فإنه لم يحل دون انفصام الشيوعية العالمية وظهور تناقضاتها الجديدة.

وما دام أن هناك طبقات كادحة وطبقات ميسورة ودولاً فقيرة وأخرى قوية غنية ، فإن قانون التناقضات مستمر يصنع التاريخ على صورته وتلد الأحداث في ضوء منطقه الخالد.

والطبقية هذه لا تسببها مستويات متباينة في الذكاء والإرادة والأخلاق والظروف المادية لكل بلد من البلدان في كل أرض تبقى هي وحدها المصدر الأساسي للحوافز المولدة للتيارات المتناقضة ثم تنتهي التحديات الناشئة عن اصطدام التيارات المتناقضة للنظام القائم إلى صنع نظام جديد تنتصر به طبقة جديدة من الناس .

إن الصين الشعبية اليوم ترفض مبدأ التعايش السلمي لأنها تتصرف تحت ضغط العنف البروليتاري والإحساس بالحاجة إلى تحقيق ثورية شاملة في قدراتها الاقتصادية.

على أننا هنا لا نناقش قيمة الماركسية كنظرية قادرة على حل مشكلات الإنسان وعلى تحريره المزعوم من الصراع الذي يولده الحرمان عند الجماهير الواسعة. فلهذا الموضوع مناسبة أخرى غير هذه المناسبة . ولكن الذي يهمنا تقريره هو أن المعسكرات الشيوعية التي تولدت من تباين الظروف الاجتماعية الاقتصادية والرواسب المتخلفة عن العصور السابقة والقيادات السياسية التي أتيحت لكل منها هي في الحقيقة استمرار للتناقضات الجدلية بين طبقات مغامرة محرومة باحثة عن الرزق وبين طبقات أخرى تسيطر على مصادر هذا الرزق وتستمتع بمستويات عالية من العيش ، وهي جدلية مستمرة استمرار الحياة خاضعة لغرائز ثابتة تتحدد بها أبعاد القانون العام للوجود كله في سلم مستوياته المختلفة.

وقد أرادت غريزة التاريخ أن تدول دول وتنشأ دول جديدة تحت ضغط التفاعل الدوري المستمر بين شعوب متقدمة وأخرى متخلفة، أو بين حضارة مزدهرة يسيطر أصحابها على ثروة العالم واقتصاده الأساسي وحضارة أخرى ما تزال كافية في رحم الزمن لم تزدهر بعد لأنها لم تستطع أن تستجيب للتحديات التي تواجهها في طبيعة أرضها أو في الظروف السياسية الخانقة والقيود التي فرضها عليها أصحاب الحضارة المزدهرة المسيطرة.

ظهرت هذه الغريزة على صورة الأبعاد الجغرافية الطبيعية في كل حوض حضاري. ولما كانت السهوب الثلجية الشمالية في أوروبا هي الرحم الذي خرجت منه جماهير البرابرة الشماليين ، كما يسميهم المؤرخون والرومانيون القدماء ، واجتاحت في خروجه بطاح أوروبا الوسطى والجنوبية في مجموعات ضخمة من القبائل الغولية والألمانية والاسكندينافية ، وكانت العنصر البشري الجديد الذي تحققت به نهضة الحضارة الأوروبية الحديثة ، فإن الصحراء العربية والصحاري التي تحيط ببقية الأقطار العربية في الشرق الأوسط والشمال الأفريقي هي بدورها الرحم الذي خرجت منه جماهير البدو كما يسميهم المؤرخون

والغرب الحضريون القدماء واجتاحت الأقطار المجاورة لها في مجموعات ضخمة من القبائل العربية النازحة وكانت العنصر البشري الذي تحققت به نهضة الحضارة العربية الإسلامية والنهضات الحضارية السابقة لها في تلك المنطقة من العالم.

وموجات النازحين هذه لم تبرز مرة واحدة في التاريخ بل تكررت بتكرر الدور الغريزي لمعطيات التاريخ الحتمية.

إن قبائل الآجينين والدوريين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد هي التي نزحت إلى جنوب شرقي أوروبا ونشأت بفضل جماهيرها الحضارة اليونانية القديمة التي انتزعت المبادرة من الفرس والمصريين وما بينهما من الشعوب المشاركة في الحضارة القديمة .

كما أن القبائل النازحة من الصحراء العربية هي التي تحققت بها حضارة الشرق الأوسط في فجر التاريخ البشري المعروف.

الحيوان

الحيوان عنصر آخر من عناصر البيئة الأساسية التي لا تتوفر أسباب الحياة السوية إلا بها . فإذا كان الحفاظ على نقاوة الماء وعذوبته شرطاً من شروط الحياة الصحية ، وإذا كانت العناية بالأشجار والنباتات ضرورة من ضرورات الحصول على بعض الرزق ، فإن صيانة الحيوان وتوفير أسباب التكاثر له ضرورتان أخريان من ضرورات الحصول على بعض آخر من الرزق الحلال . والحيوانات أنواع كثيرة لا سبيل إلى إحصائها في مثل هذه العجالة، منها ما يؤكل لحمه، ومنها ما يكون للزينة ، ومنها ما نحمل عليه ، ومنها أخيراً ما هو ضروري لإحياء الأرض بالأشجار والنباتات المزهرة الخضراء .

والجدير بالذكر أن الشريعة الإسلامية قد أولت اهتمامها كل هذه الأنواع من الحيوانات استيفاء لكل الظروف الخاصة بالحكمة الإلهية في الخلق . أوَليس أنه تبارك وتعالى قد أخبرنا بأنه قد سخر ما في السماوات والأرض وما بينهما في خدمة الانسان وتوفير حاجاته المادية والمعنوية ؟

فلنستعرض إذاً جملة المقاصد الإلهية من هذا التسخير في عالم الحيوان ...

1) قال تبارك وتعالى في الآية 14 من سورة آل عمران : " زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ "..

وإذاً فحيازة الأنعام مما زينه الله للناس وحببهم في الحصول عليه خضوعاً لغريزة التملك التي فطرهم عليها. وما يفطر الإنسان عليه لا سبيل الى تبديله والقضاء عليه . وفى وسع الإنسان أن يتزين بالحصول على الأنعام في حدود ما اشترطه الله عليه من حسن التصرف والاستقامة في السلوك. ولذلك قال عز وجل معقباً على كل هذه الزينات : " ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ "..

فالتزين مطلوب شرط ألا يتم بطريقة غير مشروعة . إن الالتزام بالشرعية مقدم على الرغبة في الحيازة غير المشروطة. فكما أن حب الشهوات من النساء يصبح شرعياً عن طريق الزواج الذي يجد فيه الإنسان سكناً ومودة ورحمة فإن حب حيازة الأنعام يصبح مشروعاً أيضاً بفضل السلوك المستقيم الذي حدده الله في شريعته الغراء .

2) ثم يعدد القرآن الكريم أنواع المنافع التي يحصل الإنسان عليها من حيازته للأنعام فقال عزّ مِن قائل : " وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ " .: الآية 5 من سورة النحل.

(وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ) الآية 80 من سورة النحل.

في هاتين الآيتين الكريمتين عرض واضح للمنافع التي يستمد منها الناس كثيراً من حاجاتهم الدنيوية . فمنها يحصلون على الثياب الدافئة واللحوم الطرية . كما يحصلون بفضلها على بيوت يستخفونها يوم ظعنهم ويوم إقامتهم . أما أصوافها وأوبارها وأشعارها فهي مادة أثاث ومتاع إلى حين.

3) ثم يبسط القرآن القول في موارد أخرى من الحيوان على طريقته في إبراز نعم الله على الناس . فجاء في الآيتين 21 – 22 من سورة المؤمنون : " وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(21) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ(22) "..

ويتكرر الحديث عن الحيوان أو الأنعام في آيات عديدة أخرى نذكر منها قوله عزّ مِن قائل : " اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ " الآية 79 من سورة غافر .

" فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ " الآية 11 من سورة الشورى "..

ثم يعقد القرآن صلة وثيقة بين العبادة وما أنعم الله به على الناس من بهيمة الأنعام في قوله عزّ مِن قائل : " وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ " الآية من سورة الحج.

وقد أحل الله لحم الحيوان لعباده إلا قليلا ممّا حرمه عليهم لا لغرض التحريم وحسب بل لأن في تحريم ما حرم منه إضراراً بهم . فقال تبارك وتعالى : " ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ " الآية 30 من سورة الحج .

وفي مكان آخر يعدّد هذه المحرمات : " حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ .. " الآية 3 من سورة المائدة . أما ما أحل فقد وردت الإشارة اليه في الآية 4 من السورة نفسها : " يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ "..

وإذا كان الوحي السماوي قد ألح على الربط بين ذكر الله وتذكية الحيوان فلأن في هذا الربط تعميقاً لروح العبادة، وشكراً لله على نعمه التي لا تحصى ومن بينها نعمة حلّ الطعام من لحم الحيوان الطيب . ذلك لأن الغرض الأساسي من خلق الإنسان الذي سخر له ما في السماوات وما في الأرض من أسباب الراحة والطمأنينة هو إخلاص العبادة لله عز وجل كما جاء في قوله تبارك وتعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ(57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)".. الآيات 56 – 58 من سورة الذاريات.

ولو شئنا أن نحصي الآيات القرآنية التي تسلط الضوء على حجم المنافع المتأتية من الحيوان لاجتمع لنا منها ما لا تتسع هذه الدراسة له، ولذلك فإننا نقتصر على ما أوردناه من الشواهد لتكون بمثابة إشعار بتعدد النعم الناجمة عن خلق الحيوان.

****

صيد الحيوان في البر والبحر

على أنّ العناية الإلهية لم تسخر للإنسان حيوان البر أو الجو من الطيور وحسب ، بل حرص الوحي السماوي على إبراز نعمة الحصول على حيوان البحر من مختلف الأسماك والحيتان.

قال عزّ من قائل في الآية 14 من سورة النحل : " وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. " وفي الآية 12 من سورة فاطر " وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ "..

والحيوان في البر والبحر لا يؤكل كله لكن اصطياده مباح بغض النظر عما يصلح منه لحمه للأكل أو لا يصلح . ذلك لأن المنفعة الناتجة عن هذا الحيوان قد تكون لأغراض شتى ورد ذكر بعضها في فقرات سابقة .

****

وقد أكبّ الفقهاء على دراسة موضوع الصيد بتوسع فقالوا بحلّه استناداً إلى قوله عز وجل : " وإذا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا" الآية 2من سورة المائدة . وإلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : " الصيد لمن أخذه "..

يقول السرخسي في كتاب الصيد : " في هذا دليل على أن الاصطياد مباح مشروع يستوي فيه إن كان الصيد مأكول اللحم أو غير مأكول لما في اصطياده من تحصيل المنفعة أو دفع أذاه عن الناس".

كما أفاض فقهاء كثيرون في التحدث عن الصيد ففرقوا بين ما هو لتحصيل المنفعة وما هو لمجرد اللهو وحسب. فقد ورد في كتاب " المنتقى " أن الخروج للتصيد إن كان على وجه الالتذاذ به فقد كرهه الامام مالك لأنه يلهي عن ذكر الله وعن الصلاة . وأما من يتخذه مكسباً أو مورداً للحم غنياً كان أو فقيراً فلا بأس به " رواه ابن حبيب عن مالك.

****

وممّا يتصل بتعامل الإنسان مع الحيوان نورد ما أثبته صاحب كتاب " المنتقي " من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جاء فيه قوله : " بينما رجل يمشي إذ اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني فنزل البئر فملأ خفه

ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له " فقالوا يا رسول الله : أإنّ لنا فى البهائم لأجراً ؟ فقال : " في كل ذي كبد رطبة أجر " يقول صاحب " المنتقى " : فقوله صلى الله عليه وسلم " في كل ذي كبد رطبة أجر" عام في جميع الحيوان ما يملك منه وما لا يملك فإنّ في الإحسان إليها أجراً ".

فإذا كان في الإحسان إلى الحيوان أجر فإنّ من الطبيعي أن يصحّ قول الفقهاء بكراهة الصيد للهو وعلى سبيل التلذذ ما لم يكن الحيوان المصطاد مصدر أذى للناس . وإذاً فقد أباحت الشريعة صيد الحيوان لغرض يأمن به الصائد غائلة الجوع أو يرد به نوعاً من أنواع الأذى . فالحيوان في الدنيا لم يخلق عبثاً بل وجد لحكمة إلهية قد ندرك بعضها ولا ندرك بعضها الآخر . ويترتب على هذا الاعتبار جواز تنظيم الصيد إما خوفاً على الحيوان من الانقراض وإما لإبقائه حتى يتوالد بحيث يتمكن الإنسان فيما بعد من أن يصيده وينتفع به في حدود الإبقاء على جنسه مدداً دائماً للبشر.

****

وهناك أنواع من الحيوان وجدت لتجنيب الإنسان بعض المخاطر لأنها فطرت على افتراس أنواع أخرى تكون مصدر ضرر له . ولو أننا أمعنا النظر في بعض ما نعرفه من حكمة الله في خلقه لتبين لنا أن في خلق أنواع مختلفة من الحشرات التي أودعها الله في الأرض محافظة على بعض ما يستنبته الإنسان من النباتات والأشجار هذه الحشرات سخرها الله عز وجل لالتهام غيرها من الحشرات الضارة بهذه المزروعات ليوفر لها فرصة كافية للنمو والازدهار . من ذلك مثلاً ما ورد في تفسير سورة البقرة من كتاب " الجواهر " للجوهري : " إن نوعاً من شجر السّنط تنتشر على ورقة نقط من العسل وحوله آلاف آلاف من النمل تؤمه سعياً إلى قوتها تراها صاعدة نازلة لتأكل الحشرات والديدان وأنواع السوس والهوام المحيطة بهذا الشجر والتي تسبب له أذى شديداً.

ومما يلفت النظر أن استعمال المبيدات الحشرية بطريقة خاطئة أو مكثفة يقضي على كل الحشرات النافعة منها والضارة . بل أن هذه المبيدات التي تستعمل بطريقة غير علمية تكون مصدر خطر كبير على طيور السماء التي تقوم بدول فعال في المحافظة على النباتات بالتهامها الحشرات الضارة بها.

****

فإذا كان الله عز وجل قد خلق كل شيء بقدر معلوم حفاظاً على توازن الوجود الحي فإنّ من واجب الإنسان الذي أنيطت به أمانة الحفاظ على مصادر الحياة أن يتصرف بحذر شديد حين يتعامل مع أنواع الحيوان في الأرض . فالتوازن هو شرط البقاء . وهو وحده الذي يمكن الإنسان من حماية ما سخر له من المنافع . وهو وحده الذي لا يكافأ إلا بذكر الله وشكره على ما أنعم به على خلقه.

وما دام أن الإنسان لا يراعى ظاهرة التوازن هذه فإنّه يعرض نفسه للخطر ويقترف الجريمة الكبرى التى هي جريمة القضاء على مصادر الحياة.

وهنا نتساءل : هل من الشكر الواجب على الإنسان تجاه خالقه أن يدمر حيوان البحر حين يبادر الى إلقاء مادة الزئبق السامة الخارجة من المصانع في مياه البحر فتتسرب إلى أجساد الأسماك ثم تنتقل هذه المادة السامة إلى الذين يطمعون ما يصاد من هذه الأسماك من الناس ؟

وهل من الشكر الواجب تجاه الخالق عز وجل أن نقذف نفايات النفط من المصانع البتروكيماوية أو السفن البحرية في مياه البحار فيقضى بها على أسباب الحياة في مناطق واسعة منها ؟ ثم هل من الشكر الواجب تجاهه عز وجل تعريض طيور السماء لأخطار المبيدات الحشرية التي ترش بغير حساب ودون تحفظ ؟

وأخيراً هل من مقتضيات حمل الأمانة التي عرضت على الإنسان فقبلها أن يجعل من صيده للحيوان وسيلة التذاذ وتسلية فيعرض التوازن الحيواني فى الأرض لخطر الإبادة ؟

إنّ ما يدعو للكثير من الأسف أن التنافس غير المشروع فى التسابق إلى كسب الأسواق العالمية لا يقف عند حد محدود رغم الإنذارات والتحذيرات الكثيرة التي يطلقها علماء البيئة في العالم .

إن شهوة البشر إلى الكسب المباشر دون مراعاة لمصلحة الحياة العامة في الكرة الأرضية هي التي تصدر عن مشاعر أنانية قصيرة النظر تؤذن في يوم عاجل أو آجل بهلاك الجميع حتى أولئك الذين تغويهم المكاسب المادية ويظنون أنهم في نجوة من الأخطار المحدقة بالعالم كله . هؤلاء يتصرفون على طريقة المثل القائل : " من بعدي الطوفان". إنهم يتجاهلون المسؤولية الملقاة عليهم نحو أبنائهم وأحفادهم. ويظنون أن أسلوب النعامة في تجنب نار الصياد ينقذهم من الأخطار. ولو

أن الجيل اليوم يتذكر قوله صلى الله عليه وسلم في مفهوم المسؤولية لارعوى عن كثير من تصرفاته . قال عليه السلام : " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ". الرجل والمرأة والخادم والابن والابنة والصانع والمزارع والتاجر وصاحب المال والموظف ورجل السياسة ،كل هؤلاء مسؤولون كلّ في دائرة عمله . إن البشرية بعد أن ضاقت الأرض بما رحبت فأصبحت أشبه بمدينة عملاقة واحدة لم يعد في وسع أي منها أن يتجاهل حق سواه في الحياة المشتركة. وأنها أشبه ما تكون بالمسافرين المبحرين فوق سفينة واحدة لا يحق لأحد منهم أن يخرق مكانه منها بدعوى حريته في صنع مصيره. فإنّ في خرق المكان الذي هو فيه تهديداً بتعريض السفينة كلها للغرق.

****

لكن الواقع أن الإنجازات التكنولوجية التي تحققت حتى اليوم والتي رافقتها عمليات التلويث الناتجة عنها لم يرافقها وعي حضاري يستوعب الإحساس العميق بالمصير البشري المشترك.

لقد كان الناس فى الماضى يعيشون على صورة مجموعات شعبية أو قبلية صغيرة ضيقة الحدود ويفكرون بعقليتها. وهم لا يزالون حتى اليوم يفكرون بهذه العقلية بعد اتساع ما ضاق من الأرض وانتشر ما قل من الناس . وبهذه العقلية يضيع التوازن الذي هو جوهر الخلق الإلهي.

فهل نستغرب بعد ذلك إذا عمت الأخطار وأصابت بالضرر كلاً من الجاني والمجني عليه ؟

إن الثروات والقوى الكبيرة التي ترتبت على تطوّر الصناعات وانتشار التلوث الذي يهدد حياة الحيوان والإنسان بالخطر قد غذت الغرور عند من يملكونها وشجعتهم على الاندفاع وراء أنانياتهم الخاصة فتنكروا لنظام الخلق السوي وغرهم بالله الغرور.

****

هكذا أصبحت هذه القوى وتلك الثروات بمثابة فتنة تضل بها العقول وتفسد بها القلوب والله تبارك وتعالى يقول في محكم تنزيله : " وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ "الآية 25 من سورة الأنفال.

والعقاب هنا لا يكون يوم الحساب الأكبر فقط بل يكون في الدنيا أيضاً . إنه يصيب الناس بالأذى حين لا يراعون حدود ما أنزل الله من السنن والقوانين فلا يبالون بها ،خضوعاً منهم لشهواتهم خشية من أن يسيئوا إلى الفطرة التي فطرهم الله عليها . فموت الحيوان في البر والجو والبحر أو تسميمه عقوبة . وصدق الله عز وجل القائل: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ " الآية 37 من سورة ق.

عمليات التغير البيئي بين الماضي والحاضر

ثلاثة مليارات ومائتا مليون سنة هي الزمن الطويل الذي اجتازته عمليات التغير البطيء في البيئة. لكن الثابت أيضاً أن مسيرة التغير هذه لم تلبث حتى اتخذت لنفسها سرعة جديدة كانت مصدر خطر كبير على البيئة البيولوجية في جملتها. كل ذلك بسبب التكنولوجيا التي أبدعها الإنسان وراح يستغلها في تحقيق أغراضه المعيشية وغير المعيشية . وقد ترتب على هذا الإنجاز التكنولوجي ظهور حاجة ماسة إلى تحقيق مزيد من التنسيق والتعاون بين الأساليب المختلفة في دراسة النظم البيئية والغرض من هذا التعاون وذلك التنسيق الحيلولة دون تعريض البيئة لانهيار يبلغ درجة الكارثة .

****

وفي ضوء الملاحظة الواقعية التي سجلناها في الفقرة السابقة ، نشير إلى وجود حوض كبير من الصخور الرسوبية غير العادية في بلاد الترانشغال الشرقية من الجنوب الأفريقي .

أولاً : هذه الصخور الرسوبية يعود بدء تكوينها إلى 3،2 مليار سنة قبل العصر الحاضر . والواقع أن العلماء الباحثين في طبقات الأرض قد أثبتوا أن هذه الصخور الرسوبية المكربنة هي على التحقيق أقدم ما اكتشف من نوعها في الأرض حتى اليوم.

ثانيا : كما يجب أن تكون هذه الصخور قد بدأ ترسبها في فترة تقع في زمن وسطي ، بين بداية تكوين الكرة الأرضية وبين العصر الحاضر.

ثالثا : هذه الصخور تحتوي على بقايا عضوية من النموذج الذي يعتبر واحداً من أقدم النماذج المعروفة حتى اليوم . وهذا يعني بالطبع أن ما تحتويه هذه الرسوبيات هو سجل لبداية ظهور براعم الحياة الأولى في الكرة الأرضية .

فإذا صح هذا التقدير فهو أيضاً علامة بينة على الأهمية الكبيرة للبيئة . وهو يعني أيضاً نهاية مرحلة تمتد قبل ذلك لمدة ملياري سنة ، أصبح معها سطح الأرض بيئة قادرة على توفير أسباب الحياة ، كما أنها يجب أن تعتبر بداية لفترة أطول لم

تتكون فيها الحياة ولم تزدهر وحسب بل كانت في الحقيقة فترة انتاج لعشرات الآلآف من النظم البيئية المتشابكة على نحو لا سابقة له.

وقد كانت هذه النظم البيئية المتشابكة ذات طابع ديناميكي ، يتصف بالتغير تغير المركبات النوعية ، وأيضاً تغير المناخات والظروف الجوية في الأرض ، وكذلك تغير جغرافيات العالم كله.

فإذا استعملنا لغة علم طبقات الأرض " الجيولوجيا " تبين لنا أن هذا العصر البيولوجي ، هو تقريباً حتى الوقت الحاضر ، واحد من عصور التغير البطيء الذي يتم لا عبر آلاف السنين بل عبر الملايين منها.

****

لكننا اليوم وبصورة مفاجئة وجدنا أنفسنا في وضع مختلف تماماً عما سبقه من الأوضاع ، ذلك أن التكنولوجيا التي أبدعها الانسان قد أحدثت من التغيرات ما لا يدركه غير القلة من علماء البيولوجيا . بعض هذه التغيرات ، من مثل تطور ونمو محاصيل جديدة وكميات أكبر مما عرف من قبل ، ومن مثل هبوط نسبة الأمراض البشرة ، هذا البعض يبدو لنا ذا صفة حميدة غير مؤذية إلى درجة كافية ، لكن هذه التغيرات في الحقيقة ، تدفع الكتلة البشرية الحية إلى مستويات يتعذر الاحتفاظ بها.

فكلما اقتربنا من هذه المستويات يتضح لنا بقوة أننا أمام خطر يعرضنا لحالة تدمير بيئي لا بالنسبة لنا نحن وحسب بل بالنسبة لكل شيء آخر . هذا الخطر يتجه بنا بكل بساطة نحو زيادة مطردة ذلك لأننا حتى الآن لا نعرف معرفة كافية كل ما يتصل بالأنظمة البيئية التي تترتب عليها النتائج المرتقبة من التغيرات الخاصة التي نستطيع أن نحدثها بإنجازاتنا التكنولوجية ، أو التي نغري بإحداثها يوما ما .

****

ولكن لماذا لا نعرف المزيد عن النظم البيئية ؟ هل أن ذلك بسبب من استخدامنا لأساليب خاطئة ؟ أو أننا ننصرف إلى دراسة أشياء خاطئة ؟ ربما أن جزءاً من المعضلة هو الكرة البلورية للعلم الذي نحاول بواسطته البحث عن إجابات للمسائل العلمية المطروحة . وربما أن الجانب المستخدم من قبل علماء وظائف الأعضاء " الفيزيولوجيا" هو الزاوية الصغيرة

جداً من مجمل الطرح العلمي بحيث أن ما يخرج من البحث فيها لا يتعاشق أو لا يتلاقى مع بقية الزوايا الأخرى. بل ربما هذا الجانب جملة من النتوءات والعراقيل والاحباطات ، التي تطرح أمام علماء التطور ، والطفيليات ، وعلماء الوراثة ، وعلماء الأحاثيات " الباليونتولوجيا " ، رؤية تتراوح بين المبالغة من ناحية والضؤولة من ناحية أخرى ، فيما يتعلق بدور كل فريق منهم في الدراسة البيئية . فحيث يتوجه عالم البيئة بنظره ، يحتمل وجود غموض مركب في تقديرات مصنفة غير وثيقة ولا مؤكدة أو متناقضة في الحجج النابعة من العمليات الإحصائية . فإذا استطاع هؤلاء العلماء المختلفون أن يتلاقوا وأن يشتركوا معاً في البحث والنظر فإنّ من المحتمل جداً العثور على حالات الشذوذ والاضطراب في كرتنا البلورية وبالتالي التخلص منها ومن ثم الحصول على رؤية أوضح لكل من الإنسان والبيئات المحيطة به .

****

والواقع أن الغرض الأساسي من الحصول على رؤية أشد وضوحاً لمعضلات علم البيئة هو الذي تهدف إليه لقاءات النظم البيئية المشتركة التي انعقدت في جامعة وسكونسن ، ماديسون ، 16 – 20 يونيو 1968م وكذلك اللقاءات التي انعقدت ولا تزال تنعقد حتى اليوم . إن الندوات التي نظمت لهذا الغرض تحمل العنوان التالي " التطور والثورة في النظم البيئية " ، كما أن دراسات متعددة قدمت في تلك المناسبات وفي مختلف الاجتماعات تستهدف العثور على وسائل أفضل وأساليب أكثر صحة في دراسة بعض المعضلات البيولوجية على نحو يتحقق به مزيد من التعمق في فهم النظم البيئية واستيعابها وحسن تقييمها .

وخلاصة القول أن المسيرة العلمية المعاصرة والخاصة بقضايا البيئة ومعضلاتها الناجمة عن التغيرات السريعة التي يسببها سلوك الإنسان المعاصر بإصراره على استخدام التكنولوجيا وعدم مبالاته بالنتائج الخطيرة التي ترتبت وستترتب على هذا الاستخدام ، نقول أن هذه المسيرة تجعل دنيانا المعاصرة في وضع غريب كمن يتحرك في جو فاقد للجاذبية تتنازع في اجتذابه مواقف واتجاهات وآراء لا تتلاقى إلا في أوقات قليلة جداً . وهي إذا تلاقت لا يكون تلاقيها إلا بصورة جزئية .

إننا يجب ألا ننسى بأن تطور التكنولوجيا الذي يتحقق هو في الحقيقة نتيجة مسيرة علمية عشوائية تفتقد الوعي بقدرة الطبيعة على الاحتفاظ بتوازنها أو تتجاهل حق الطبيعة في توفير الظروف الملائمة لها لتحقيق توازنها الضروري الذي هو شرط الاحتفاظ بأسباب الحياة الصحية الملائمة لظروف الانسان المعيشية .

****

لقد كان من حكمة الخالق عز جل أن تتطور الكرة الأرضية في ضوء سنن ثابتة بطيئة . وإذا كان الإنسان قد استطاع أن يحقق مزيداً من التسارع في ظاهرة التطور هذه فإنّ عليه قبل كل شيء أن يراعي سنن الطبيعة في عملية التسارع هذه . فإذا لم يغفل وركب رأسه في تحقيق أطماحه دون الالتزام بالسنن الخالدة فإنّه يجني على نفسه وبالتالي يجعل من التلويث نوعاً من الانتحار البطيء ، الذي قد لا يتعرض له الجيل الحاضر لكن المؤكد أن الأجيال القادمة ستكون فريسة بريئة وسهلة لطريقته في التعامل الخاطىء مع الطبيعة والكون .

من المسؤول الحقيقي عن الأزمة البيئيــة ...

الشيء الثابت هو أن العالم يواجه أزمة بيئية حادة .. فمن هو المسؤول عنها ؟ هل هي العقيدة الدينية ؟ أم هي التقاليد والأعراف ؟ أم هو الإنسان بطبيعته التي فطر عليها ؟

يقول خبير البيئة الأميركي ريتشارد رايت : " إن التهمة الموجهة الى المسيحية باعتبارها مسؤولة عن الأزمة البيئية لا تقوم على أساس صحيح". ثم يضيف قائلاً : " إن النصوص الانجيلية وتاريخ العلم والتكنولوجيا تشير بأن سوء الاستخدام في العصر الحاضر واستغلال البيئة هما النتيجة الحتمية لطمع الإنسان واستهتاره وجهله، وأن ما ينسب إلى العقيدة من أنها وراء هذه الأزمة وأنها المسؤولة الأولى عن حدوثها هو اتهام باطل . وهذا يعني أن الذين يرمون العقيدة الدينية بهذا الاتهام إنما يطرحون موضوع مشكلات البيئة في غير ميدانها الحقيقي بالإضافة إلى هذا الاتهام مصدر لتخريب شديد"..

****

نحن هنا لا نحاول إصدار حكم على الرأي الذي أدلى به هذا الخبير البيئي الأميركي لكننا في الوقت نفسه لا يسعنا إلا أن نقرر بأن في عالمنا اليوم عاملين أساسيين لا سبيل إلى السيطرة عليهما هما : النمو السكاني والتكنولوجيا .

إن الملايين من سكان الأرض اليوم يشكون من سوء التغذية ويتعرضون لخطر المجاعة ، كما أن مناطقنا المدينية "نسبة إلى المدينة " تنمو بصورة مكثفة جداً فتبدو وكأنها ثور سرطانية منتشرة في طول البلاد وعرضها. يضاف إلى ذلك أن الهواء والمياه ملوثة بقدر كبير من المخلفات والفضلات..

ويترتب على ذلك صعوبة الإحساس بالعيش في وئام مع العناصر البيئية التي تحيط بنا باعتبارها المعيار الحقيقي لحياة صحية سليمة . وبدلاً من ذلك يبدو أنّنا نتجه نحو كارثة محققة ، وفي عجز تام أمام العوامل المدمرة لكل من تكاثر البشر والتكنولوجيا ، كما يبدو لنا في ظاهر الأمر أننا أضعف من أن نسيطر على هذين العاملين الأساسيين . فكيف يسعنا الحيلولة دون التعرض لهذه الورطة؟

يقول الخبير الأميركي السابق الذكر أن عدداً متزايداً من الرجال الذين تتميز كتاباتهم بالهيمنة على عقول الناس في العالم قد مد وعد أصابع الاتهام حول أزمة البيئة الحاضرة الى التعاليم المسيحية . " وهو هنا بالطبع يتحدث عن الخبراء

والكتاب الأميركيين والأوروبيين . ومن أبرز الناطقين بهذا الرأي الاتهامي الخبير الأميركي أيان ماك هرغ الأستاذ في جامعة ينسيلفانيا في كتابه " تخطيط للطبيعة " : يقول الخبير أيان هذا :

" إن الأديان الغربية الكبيرة النابعة من قاعدة الوحدانية كانت ولا تزال المصدر الأكبر لمواقفنا الخلقية. ففي ضوء هذه الأديان وبوحي منها غذينا فكرة وحدانية الإنسان ومفهوم كل من العدالة والاحساس بالشفقة. وعلى ذلك ففيما يتعلق بالإنسان والطبيعة يتبين لنا أن قصة الخلق في سفر التكوين عن الكتاب المقدس هي مصدر أكثر الأوصاف تقبلاً لدور الإنسان وقدراته . وهذه الأوصاف لم تغسل في التطابق مع الواقع كما نلاحظه فقط ، بل إنها في توكيدها على حق الإنسان في الهيمنة على الطبيعة واستغلالها تحت ضغط غرائز التدمير به تبدو أكثر ظهوراً وفاعلية من وصفه كائناً خلاقاً مبدعاً . والواقع أن الاتجاه القائم نحو اللامبالاة في زيادة النشاط الإشعاعي ، وخلق مزيد من الأقنية والمرافىء بواسطة القنابل الذرية ، واستخدام السموم دون مراعاة لأي شروط صحية ، وفتح الأبواب واسعة أمام عقلية " البولدوزر " التي تكتسح كل شيء أمامها ... هذه كلها تبدو لنا الأساليب والوسائل المتبعة في غزو عالم الطبيعة .

وهناك خبير آخر من خبراء البيئة هو الاستاذ لين هوايت في كتابه " الجذور التاريخية للأزمة البيئية " يطرح وجهة نظره بأسلوب أكثر علمية وبطريقة أكاديمية من الخبير ماك هرغ، لكنه في نهاية المطاف يؤكد وجهة نظر هذا الأخير بتحميل التعاليم المسيحية مسؤولية الأزمة البيئية الحاضرة. وخلاصة ما ورد في كتابه زعمه " إن علمنا الحاضر والتكنولوجيا الحاضرة مصطبغان بالغطرسة المسيحية الأورثوذوكسية أمام الطبيعة ، إلى الدرجة التي يتعذر معها إيجاد حل لأزمتنا البيئية . والسبب في ذلك كما يزعم هذا الخبير الأميركي أن هذا الحل لا يمكن توقع العثور عليه ما دام أن جذور ما تعانيه البشرية من الاضطراب موصولة بالعقيدة الدينية، فالدواء إذاً ذو طابع ديني في الأساس قلنا ذلك أو لم نقل ".

****

والمؤسف أن كتابات الاستاذ وايت هذا قد طبعت وأعيد طبعها مرات كثيرة بحيث أن عدداً كبيراً من الأساتذة العلماء في مختلف الجامعات الأميركية قد تأثروا بوجهة النظر هذه وراحوا يحملون عقيدة المسيحية مسؤولية نشوز أزمة البيئة في العالم المعاصر.

****

تعقيب

صحيح أن الكتاب المقدس قد منح الإنسان حق السيطرة على الطبيعة وحضه على استغلالها ، وهو القائل ما معناه : " وقال الله لهما " أي الرجل والمرأة " كونا منجبين وليتكاثروا عدد أطفالكما وأحفادكما وسيروا جميعا في الأرض ، وطوعوها لخدمتكم ، وهيمنوا على أسماك البحار ، وطيور الفضاء وكل شيء حي يدبّ فوق الأرض" سفر التكوين 1 – 27 – 28 .

وصحيح أيضاً أن هذا الكلام قد وجه إلى نوح عليه السلام عند نهاية قصة الطوفان ، كما أنه الكلام الذي أخذ به النبي داوود عليه السلام كما جاء في المزمور الثامن.

وصحيح أيضاً أن أدياناً أخرى وفي مقدمتها الدين الإسلامي قد اكترث من ذكر النعم التي أنعم الله بها على الإنسان وشجعته على استغلال الطبيعة والإفادة منها. والقرآن الكريم حافل بالآيات التي تتحدث عن هذه النعم التي لا تحصى . منها نعمة خلق السماوات والأرض، ومنها نعمة خلق الحيوان والنباتات المختلفة الألوان والطعوم ، ثم الإعلان الصارخ الصريح بأن كل هذه المخلوقات قد سخرت للإنسان: "وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " الآية 13 من سورة الجاثية.

لكن هذه النعم التي منحتها العناية الإلهية للإنسان لا تعني حين تُسخر له أن يتصرف معها التصرف الأناني الغبي الذي يتجاهل معه السنن والقوانين التي جعلت منها الإرادة الإلهية قواعد لاستمرار الطبيعة سوية متوازنة .

فالطبيعة مستعدة دائماً لتعطي الإنسان حاجته من الطبيعة والشراب . وهي مستعدة دائماً للاستجابة لكل مطالبه من السكن والكساء لكنها غير مستعدة للاستجابة له حين يتصرف معها التصرف النابع من الغرائز والشهوات المدمرة.

****

ليست التعاليم الدينية مصدر الرغبة في صنع أدوات التدمير والتخريب في عالم الإنسان ..

وليست التعاليم الدينية هي التي فرضت على الشعوب خطة الامتثال دون أي مبرر للرغبة في نهب الضعفاء وتخريب العمران .

وليست التعاليم الدينية في نهاية المطاف هي التي دفعت وتدفع إلى تغذية أوهام التمييز العنصري بين الشعوب أو الطبقي داخل الشعب الواحد. فهذا هو القرآن الكريم يقول :

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " الآية 13 من سورة الحجرات.

****

وهنا نعود إلى الفقرات الأولى من هذه المقالة لنردد ما جاء فيها من أن الشهوات البهيمية والاستهتار والأنانية المفرطة وسوء الاستغلال كانت ولا تزال وراء كل الكوارث التي نزلت بالبشر ولا سيما الكوارث الناجمة عن التلويث المفتعل . وإذا كانت الأوبئة في الماضي هي العقوبة التي تنزل بالبشرية بسبب القذارة والحروب فإنّ الكوارث التي تتعرض لها البشرية اليوم ليست حصيلة الحروب وحسب، بل هي أيضاً حصيلة التنافس في الإنتاج المستند إلى التكونولوجيا الحديث وسياسة التوفير فى الإنفاق والتي يتربت عليها إهمال الفضلات والمخلفات الناتجة من التكنولوجيا وذلك لتحقيق شيء واحد هو احتكار الثروة البشرية والسيطرة اقتصادياً على العالم ولو أدى ذلك إلى تلويث الملايين بالسموم الناتجة عن سياسات الحروب الاقتصادية .

إن الله عز وجل قد قدم الإنسان في شخص آدم عليه السلام إلى ملائكته على أنه الخليفة في الأرض. وقد منح هذا الإنسان في شخص آدم نفسه ما لم يمنحه لملائكته . كل ذلك ليكون هذا المخلوق المتميز قادراً بإرادته ووعي منه على الالتزام بشريعة الله في الأرض.

يكفي أن نقرأ قوله تبارك وتعالى ابتداء من الآية الثلاثين وما بعدها من سورة البقرة لنستبين أبعاد الامتياز الذي فاز به الإنسان . قال عز من قائل : " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(30)وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلآئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(31)قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(32)قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ

مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(33)وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(34)".

****

ولم يقتصر القرآن على تمييز الإنسان في شخص آدم حتى من ملائكته بل أضاف إلى هذا الامتياز التزاماً بالمسؤولية نحو ذاته ونحو ما سواه من أشياء الطبيعة والحيوان والنبات وتوعده بحساب عادل عما عساه يصدر عنه . والمسؤولية هذه هي حصيلة تمتعه بحرية الاختيار بعد أن خيره الله بين النجدين : نجد الخير والفضيلة ونجد الشر والرذيلة .

وطبيعي أن العدوان على ظاهرة التوازن في المخلوقات وتجاهل سنن الله فيها لا يصدران عن إحساس الإنسان بامتيازه بل يصدران عن تجاهله للشروط التي تحتفظ معها الطبعية والكائنات الحية بسلامتها.

يضاف إلى ما سبق أن مسؤولية الإنسان لا تكون نحو الطبيعة وأشياء الحياة وحسب بل تكون أيضاً نحو نفسه . فكما أن النفس الإنسانية وجدت لتبقى سليمة معافاة وأن من يعتدي عليها يعتبر آثماً في نظر الشريعة الإسلامية، فإنّ الطبيعة والكائنات الحية المسخرة لخدمة الإنسان وحفظ حياته يعتبر الحفاظ عليها مسؤولية خطيرة ،والاعتداء عليها أثم في نظر الشريعة السمحاء .

فلا يقولن أحد بعد اليوم أن تعاليم الكتاب المقدس من ناحية وتعاليم القرآن الكريم من ناحية أخرى هما المسؤولان عن ظهور أزمتنا البيئية لمجرد أنهما تحدثا عن امتياز الإنسان وحقه في استغلال الطبيعة وما فيها وما فوقها، بل المسؤول الحقيقي هو طمع الإنسان واستهتاره وتجاهله لحقوق النفس والطبيعة والحياة بصورة عامة .

إن الشيء الثابت أن الذين يوجهون أصابع الاتهام نحو التعاليم الدينية المسيحية منها أو الإسلامية يصدرون عن سوء نية أو يصدرون عن جهل بحقيقة هذه التعاليم .

لقد علمتنا التجربة الحية أن الحرية ظاهرة تتعارض تعارضاً تاماً مع الفوضى .. فالحرية موصولة بقوانين السلامة والأمن، أما الفوضى فهي شرود عن هذه القوانين وحرب مرصودة عليها توحي بها غرائز عمياء تفتقد ضوء الهواية ونور العقل .

دراسة في الأسس العامـة لتشريع الأحـكام

الخاصة بإصدار مشروع قانون إسلامي

لحماية البيئة في المملكة العربيـة السعوديـة

إذا كانت للرسالة الإسلامية ميزة خاصة تتميز بها، ففي أنها ذات رؤية متكاملة تستوعب شؤون الدنيا كما تستوعب شؤون الآخرة ، وتجعل من النشاط البشري في ميادينه الأدبية والمادية حصيلة ضرورية تتجاوب مع روحها ، وما ورد فيها من الأوامر والنواهي ، وتقرر في وحيها من المقاصد والأغراض التعليمية والتربوية ، وما سجل في هذا الوحي من قصص تاريخي جاء بمثابة الشواهد في طريق الارتقاء البشري والمعالم التي تضرب مثلاً في توضيح مواطن الحق وتمييزها من مواطن الباطل ، وتحديد مواقف الاستقامة والانحراف .

هكذا يستبين لنا أن دعوة الإسلام لا تقر أي فصل بين مسؤوليات دنيوية ومسؤوليات أخروية. فعالم ما بعد الموت في تعاليم هذه الدعوة هو استمرار ضروري وطبيعي لعالم ما قبل الموت . والمسؤوليات فيها ذات طابع فردي محدد ، فيها من الوضوح ما يتعين به الدور الحقيقي لكل إنسان على حدة .

****

أما فيما يتعلق بالرؤية المتكاملة التي تستوعب شؤون الدنيا والآخرة ، فقد ورد فيها قوله عز وجل : " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا .." من الآية (3) من سورة المائدة.

فإذا انتقلنا إلى ميدان المسؤولية الفردية وجدنا في كتاب الله من الآيات البينات ما يحدد هذه المسؤولية ويؤكد ارتباط كل فرد بها على حدة كما في قوله تبارك وتعالى : "كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ "الآية (38) سورة المدثر. " وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ".. الآية (48) من سورة البقرة.." يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ "الآية (30) من سورة آل عمران.

****

ولمّا كان الغرض من خلق الجن والإنس هو ممارسة العبادة لله عز وجل مصداقاً لقوله تبارك وتعالى " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ". الآية (56) من سورة الذاريات.

ولمّا كانت العبادة هي العمل بالتعاليم الواردة في كتاب الله ومراقبة الأوامر والنواهي، ثم الاستعانة بكل ما ورد في هذا الكتاب الكريم من أمثال مضروبة وقصص مروية وأحكام، فقد وجب أن يدخل في مفهوم العبادة كل ما يصدر عن الإنسان من قول وعمل ، بل كل ما تختلج به نفسه ، ويحتويه قلبه من خفي الأفكار والنوايا والعواطف بحيث توضع في خانة العبادة. ممارسة أركان الإسلام الخمسة إلى جانب النيات الخفية وبالإضافة إلى كل تصرف من التصرفات التي تستبين بها طرائق التعامل مع الخلق كلهم ابتداء من الأكوان القائمة في الفضاء الخارجي وانتهاء بأنواع الخلق وفصائلهم في الأرض من طبيعة جامدة أو نبات أو حيوان أو إنسان.

كل ذلك يسجّل في كتاب مسطور .. حتى إذا جاء يوم الحساب اكتشف صاحب هذا الكتاب أنه لم تغب عنه كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها ووجد ما عمل في دنياه محضراً كما في قوله تبارك وتعالى في محكم تنزيله " يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ" الآية (30) من سورة آل عمران. ويتولى كتابة هذه الأعمال كاتبون خلقوا لهذا الأمر ، يحفظون بأمانة تامة كل ما يصدر عن الإنسان من خير أو شرّ كما في قوله عز وجل : " وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ(10) كِرَامًا كَاتِبِينَ(11)" سورة الانفطار.

****

هكذا تستبين الصورة الكاملة لمفهوم العبادة وتتحدد الأبعاد المادية والأدبية في حدود ما جاء فيها من وحي السماء . ولمّا كان القرآن الكريم قد أعلن بأن السموات والأرض وما بينهما قد سخرت لخدمة الإنسان ، فقد وجب أن تكون هذه الأرض وتلك السماوات وما بينهما المسرح الطبيعي الذي يتحرك فيه هذا الإنسان ويتعامل مع أشيائه في ضوء ما قصد إليه من خطة التسخير هذه .

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " الآية (13) من سورة الجاثية.

ثم يمضى القرآن في تفصيل بعض ما سخره الله لخدمة الإنسان وجعله موضعاً وغرضاً للتعامل الإنساني :

" وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ..." من الآية (32) من سورة ابراهيم.

" وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ..." من الآية (32) من سورة ابراهيم.

" وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنَ .." من الآية (33) من سورة ابراهيم.

" وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ.. " من الآية (33) من سورة ابراهيم.

" وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا.." من الآية (14) من سورة النحل.

" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ.." من الآية (65) من سورة الحج.

****

على أن كتاب الله عز وجل لم يقف عند هذه الخطوة بل عين أنواعاً معينة من التعامل مع ما سخره الله للإنسان من خلقه . فطالب عباده بالتأمل والتدبر في خلق السماوات والأرض فقال عز وجل : " قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ " الآية (101) من سورة يونس.. كما طالبهم بالبحث عن أسرار هذا الخلق واكتشاف البداية التي صدروا عنها ، أي اكتشاف كل ما تنتظم به من السنن والقوانين تدعيماً لليقين وإعلاناً عن الحضور الإلهي وقدرته على استئناف هذا الخلق متى يشاء وكيف يشاء : " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " الآية (20) من سورة العنكبوت.

واستتماماً لدائرة الوعي عند عباده لم يقتصر الله عز وجل على حضّ الأفهام للتعرف إلى أسرار الخلق بل جاوز ذلك إلى حض هذه الأفهام على التفكر في مصائر البشر للتعرف إلى مواطن الكمال والنقص واكتشاف جوانب النجاح والفشل . وهذا يعني أن على هذه الأفهام أن تسير في الزمان كما تسير في المكان. فإذا كان السير في المكان يعني التكامل مع الطبيعة والكون والحياة فإنّ السير في الزمان يعني العودة إلى ما مضى من الأمم والتعرف إلى مصائر الصادقين والكاذبين من أفرادها.

" قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ" الآية (11) من سورة الأنعام.

****

هكذا يتأكد لنا أن المكان والزمان هما البيئة التي يجد الإنسان نفسه فيها ويتعين عليه أن يتعامل معها ، وأن يكون هذا التعامل مستنيراً بالغاية المحددة له وهي خدمة الحياة الدنيا بالطريقة المتميزة بالنظافة والاستقامة بحيث لا تتعارض مع السنن والقوانين التي لا تبديل لها ولا تحويل كما أكد ذلك القرآن الكريم نفسه في قوله تبارك وتعالى : "سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ". الآية (77) من سورة الاسراء. وفي قوله أيضاً : " فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا " الآية (43) من سورة فاطر.

وهذا يعني أن تجاهل هذه السنن والعمل فيما يتعارض مع استمرارها وسلامتها هو خروج على تعاليم الوحي السماوي وتجاهل للأوامر والنواهي التي نزلت من السماء هداية للناس في الدنيا وخدمة لحيواتهم وتمكيناً لهم من النجاة في الآخرة على اعتبار أن النجاح في الدنيا بشروط السماء يعني النجاح في الآخرة.

****

في ضوء ما سبق تتحدد العلاقة الأساسية بين الإنسان والبيئة التي تحيط به . وفي وسعنا أن نعين أبعاد هذه البيئة على الصورة التالية :

أ – البيئة المكانية والغرض منها هو :

1) تعيين المكانة الحقيقية لكل من الكون الخارجي الذي أطلق عليه القرآن اسم " السماوات "، والأرض بكل ما تحتويه من جماد ونبات وحيوان . وخلاصة هذه المكانة أنها، أي السماوات والأرض ، مخلوقة لله عز وجل فلا تتمتع بأي امتياز معنوي كما كان شأنها عند الأمم القديمة التي عبدتها أو عبدت بعضها أو زعمت لها قوة إلهية خارقة.

2) تعيين الغرض من وجودها . وخلاصة هذا الغرض أنها مسخرة لخدمة الكائن الإنساني الذي جعله الله خليفة في الأرض حين نفخ فيه من روحه وعلمه الأسماء كلها.

3) تسخير السماوات والأرض يعني حض الإنسان على التأمل فيها والتعرف إلى السنن والقوانين التي تخضع لها تمهيداً لحسن الانتفاع بها على أي صورة بدت وفي أي مكان تقوم فيه.

4) ومن نتائج هذا التسخير أن يكتشف الإنسان الباحث في أسرار السماوات والأرض وحدانية الخالق عز وجل وأن يعمق إيمانه بهذه الوحدانية .

5) ومن طبيعة التأمل الواعي المنظم والتعامل مع المخلوقات توعية القلب وضبط طرائق التفكير النظري والعملي مما يتحدد به منهج سليم في البحث النظرى والعملي.

6) التصرف النظيف في ضوء هذه السنن والقوانين التي تنتظم بها شؤون الخلق بحيث لا يجري هذا التصرف باتجاه معاكس لهذه السنن مما يفسد على السماوات والأرض دورها في خدمة الحياة والأحياء التي هي شرط الاستمرار السليم في الحياة الدنيوية . فالحفاظ على نظافة هذه البيئة المكانية هو شرط أساسي من شروط الحياة السليمة التي جاء الإسلام لينظمها ويبعثها في خدمة الإنسان.

ب – البيئة الزمانية والغرض منها هو :

1) التأمل الواعي في مصائر السابقين من الأجيال والقبائل والشعوب بحيث يتجنب المتأمل الوقوع في الأخطاء التي وقع فيها هؤلاء جميعاً من قبله.

2) حسن استخدام الإرادة ببذل المزيد من الجهد من أجل التغلب على دوافع الضعف أمام النفس الأمارة بالسوء أو الخضوع لوسوسات الشياطين وهمساتهم.

3) دعوة الإنسان إلى الوقوف عند الحدود التي وضعت له، فلا يغره بالله الغرور ولا يدفعه النجاح في أعمار الأرض إلى التصرف تصرفاً غير كريم، لأنّ شعوباً وقبائل سابقة قد عمرت الأرض أكثر مما عمرها وتوفر لها من أسباب القوة أكثر مما توفر له ، ومع ذلك فقد بادت واندثرت لأنها لم تعتصم بشروط النظافة والاستقامة . والقرآن الكريم حافل بهذه المعاني منها قوله عز من قائل : " أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا

الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " الآية (9) من سورة الروم.

****

وخلاصة هذا التمهيد الذي قدمنا به هذه الدراسة الخاصة بمشروع القانون الإسلامي لحماية البيئة في المملكة العربية السعودية أن رأس هذا الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هدى ورحمة للعالمين هو ممارسة العبادة لله عز وجل على النحو الذي يتم به الالتزام الدقيق للأغراض التي قصد بها خلق السماوات والأرض وما بينهما وفي مقدمتها توفير أسباب الحياة للإنسان بالشروط التي جاءت مرافقة لدعوة الدين الحنيف . ولما كانت السماوات والأرض وما بينهما هي البيئة التي تحيط بالإنسان على درجات متفاوتة من القرب في ميدانها المكاني والزماني فقد وجب أن يكون التعامل مع هذه البيئة ضمن الشروط التي تحافظ على سلامتها وتتجنب الاضرار بها . وهذا يعني بتعبير آخر أن رعاية البيئة من أجل الحفاظ على سلامة الحياة المادية وحسن الإفادة منها والاعتبار بها من أجل الحفاظ على سلامة الحياة المعنوية هي الخط الاستراتيجي الأساسي للتوجيه التربوي ولتحقيق سياسة تنموية متصاعدة تجعل من الإنسان المؤمن كائناً يتمتع بالقوة والصحة والسلامة ويقدر على توفير أسباب البقاء الصحي النظيف للبيئة التي يمارس فيها عبادته بشروطها المذكورة من قبل .

****

العلاقة بين خلافة الإنسان في الأرض وبين البيئة

ولعل أخطر ما في التعاليم القرآنية هو تحديد طبيعة العلاقة بين الإنسان الذي جعله الله خليفة في الأرض وبين البيئة التي يمارس فيها مسؤوليات هذه الخلافة.

1) أول ما يشدد الوحي السماوي عليه هو إعلان أن الخلق كلهم ويدخل فيهم الإنسان نفسه هم عبيد لله عز وجل . فالجميع متساوون أمام الله بعبوديتهم يشهدون له بالربوبية دون منازع أو شريك. هذا الإعلان يعتبر أساسياً في تعقيد وتحديد العلاقة بين الإنسان والمخلوقات من ناحية وبين الإنسان والله من ناحية أخرى. فهو يذكر كل إنسان في كل جيل

بحجمه الحقيقي وبأنه ليس له من أمر الخلق شيء أبداً . وغاية ما في الأمر أن لهذا الإنسان وظيفة تتكافأ مع القدرات التي منحته إياها العناية الإلهية وبالتالي مع الحريات المسؤولة التي هيأها له في التعامل مع بقية المخلوقات والتي لا غاية من ورائها غير ممارسة العبادة للخالق الذي خلقهم جميعاً .

فقدرة الإنسان على التعامل بحرية مع المخلوقات وتمكينه من الهيمنة عليها لا يغيبان أنه قد خرج من إطار العبودية بل يجب أن يكونا توكيداً لها في قلبه وتدعيماً لدورها في صقل روحه وتوثيق ارتباطه بالله عز وجل.

وقد ورد في كتاب الله ما يؤكد تساوي المخلوقات في العبودية لله والاعتراف له بالربوبية المطلقة في عدد من الآيات الكريمة . أما فيما يتعلق بالسماوات والأرض فقد قال تبارك وتعالى : " قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9)وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ (10)ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11)فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(12) " سورة فصلت. وأما فيما يتعلق بالإنسان فقد جاء فيه قوله عز من قائل : "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ " الآية (172) من سورة الأعراف.

2) ويترتب على هذه العبودية التي تتساوى فيها المخلوقات كلها بمن فيها الإنسان والملائكة وكل ما نعلم وما لا نعلم من خلقه ، اليقين بأنه ليس لأي منها ملكية مستقلة . فالملك كله لله عز وجل . وهذا يعني انّ الإنسان نفسه ملك له سبحانه وتعالى . يقول جل ثناؤه : " لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى "الآية (6) من سورة طه.

3) فإذا كانت الملكية المطلقة لكل المخلوقات وقفاً على الله عز وجل فقد وجب أن يكون كل ما يوضع في متناول يد الإنسان على سبيل العارية . والعارية هذه تبقى مسخرة لكل فرد توفر له ما يحتاج إليه من أسباب الرزق وتمنحه مكاناً يأمن فيه من غوائل الأيام وتستجيب لكل مطالبه كما تكون موضعاً من مواضع تأملاته وأبحاثه الساعية الى احتواء الجديد من المعارف . فحق الانتفاع بهذه العارية إذاً محدود بعمر الإنسان . لكنه في الوقت نفسه مشروط بشروط صاحب الملك

الحقيقي الذي هو الله عز وجل . أما أنّ ما سخر من المخلوقات لخدمة الإنسان هو من قبيل العارية فهو موجود في قوله عز وجل : " فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ " الآية (36) من سورة البقرة. إن قوله تبارك وتعالى:" وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ" واضح جداً في أن كل ما في الأرض من المسخرات للإنسان بأمر الله هو عارية تعود إلى صاحبها الحقيقي منذ يخرج المنتفع بها من الدنيا بوفاته . ويتضح معنى " حق الانتفاع المؤقت " فيما ورد من قوله تبارك وتعالى ابتداء من الآية (30) من سورة البقرة والذي يخبر فيه الملائكة خبر خلقه لكائن جديد يستخلفه ويزوده بما لم يتزود به أي كائن قبله. والمستخلف " بفتح اللام الثانية " يجب أن يكون أميناً على ما استخلف عليه وأن يتصرف في حدود الشروط المرسومة له من قبل صاحب الملك.

4) يبقى الآن أن نتساءل عن حقيقة البيئة المكانية أو الزمانية التي وضعت تحت تصرف الإنسان والتي تشتمل على ما لا سبيل إلى إحصائه من النعم المتعلقة بالحاجة إلى حياة حافلة بالراحة والهناءة والإحساس بالأمن والمتزودة بقدر من المعرفة يمكنها من اجتناب الوقوع في الخطأ والانحراف عن مقومات النظافة والاستقامة.

أما البيئة المكانية فإنّها تحتوي على كل من :

1) الأرض.

2) الماء .

3) النبات .

4) الحيوان .

والتعامل مع كل من هذه العناصر الأربعة مشروط بشروط خاصة غايتها الحفاظ على سلامتها وتمكينها من أن تكون مصدر نفع لكل جيل من الأجيال بغض النظر عن موقف هذه الأجيال من عقيدة الوحدانية ومن تعاليم الإسلام. ذلك أن المسلم حين يتعامل مع هذه العناصر لا يجوز أن يتصرف في ضوء إحساسه بالعزلة عن غير المسلم بحيث يتجاهل حق هذا الأخير في أن ينتفع بنعم الله في الأرض . والسبب في ذلك أن أي فساد يسببه الإنسان في أي مكان من الأرض لا يلبث أن يحدث أثره السيء كثيراً أو قليلاً ، عاجلاً أو آجلاً ، في بقية الأمكنة . والدليل على ذلك أن القرآن الكريم قد

أعلن كرامة الإنسان على الله دون تحديد لعقيدته وعرض لبعض مظاهر هذه الكرامة متمثلاً في الإشارة الى بعض النعم الإلهية . قال عز من قائل : " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً "الآية (70) من سورة الاسراء. هكذا سبق في علم الله وصدر عنه عز وجل أن يتمتع بنو آدم بنعمة التكريم ومعنى هذه النعمة توفير أسباب الانتقال والحمل في البر والبحر والرزق من الطيبات ، وبالجملة تفضيله على كثير ممن خلق الله عز وجل .

وخلاصة القول في مفهوم البيئة المكانية أن القرآن الكريم يقرر وحدة هذه البيئة ويطالب المسلم بالحفاظ على كل مرفق من مرافقها ما وسعه ذلك لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها. وتبدو لنا هذه الرغبة الجادة في الحفاظ على سلامة النعم التي أنعم الله بها على الناس والتي صيغت كل صورة أوامر متشددة صادرة عن الخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه في الخطبة التي ودع بها أفراد جيش أسامة بن زيد رضي الله عنه. في هذه الخطبة التي أصبحت وثيقة تاريخية تكشف عن أخلاقيات الدعوة الإسلامية في تعامل المسلم لا مع النساء والأطفال والشيوخ والرهبان الذين اعتزلوا دنيا الناس وحسب ، بل مع الأشجار المثمرة التي هي مصدر أساسي من مصادر الرزق عند الإنسان المؤمن وغير المؤمن. لقد حرم رضي الله عنه على جيشه أن يغتال شجرة بالقطع أو الحرق. ومنعه من أخذ ثمرها إلا بحقه وإلا لضرورة الأكل فقط . وسنتبين فيما بعد جملة من التعاليم الإسلامية الهادفة الى حماية البيئة المكانية في ترابها وحيوانها ومائها ونباتها.

****

واستتماماً لصورة الأخلاقيات الإسلامية نشير إلى مكانة البيئة الزمانية ودور المسلم معها، وإن لم يكن البحث في هذه البيئة ذا علاقة مباشرة بمادة هذا البحث . وفي وسعنا تحديد مكانة البيئة الزمانية ودور المسلم معها بالقول بأن القرآن حرص بشدة على تقديم مقتطفات من وقائع الماضي البشري لتكون عبرة لأولي الألباب ودرساً يتعلمون منه ضرورة الالتزام لصفات الاستقامة والطهارة التي هي في الحقيقة ضمانة أساسية لحسن التصرف في كل الأحوال والظروف . وفي يقيننا أن الغاية من إيراد العبر وتذكير المؤمنين بوقائع الشعوب السابقة وتمييز الفريق الفائز من الفريق الخاسر إنما يقصد به إعلان الوحدة بين الجانبين الأدبي والمادي . فمن النتائج الضرورية والطبيعية لرفع مستوى الوعي الخلقي حسن التعامل مع كل طرف من الأطراف والالتزام لكل تعليم وتوجيه على اعتبار أن الوعي التعبدي يستوعب كل نشاط مادي أو أدبي بما في ذلك التعامل مع الأرض اليابسة والنهر والجدول والطريق وغيرها . أوَليس من مبادىء التشريع الإسلامي أن تكون الأرض

لمن يحسن خدمتها ؟ أوَليس أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد علمنا أن رفع الأذى عن الطريق صدقة ؟ أوَليس أنه عليه السلام قد اعتبر المجتمع الواحد كركاب سفينة يمنع أي واحد منهم من أن يخرق مكانه من السفينة حتى لا يتعرض الباقون للغرق ؟ أوَليس في هذه الصورة ما يؤكد وحدة الحياة والأحياء موصولة بوحدة التعامل مع أشياء الحياة في الأرض ؟

وجه آخر من وجوه العلاقة بين خلافة الإنسان والبيئة

إذا تقرر لدينا أن البيئة التي تعني الأرض والمياه والحيوان والنبات وما هو فوق الأرض وفي باطنها هي جانب من النعم التي أنعم الله بها على الإنسان .. وإذا تذكرنا أن الحياة التي تتحقق بفضل ما ينفخ الله من روحه في الجسد البشري .. وإذا علمنا أن العدوان على هذه الحياة هو خطيئة كبرى يرتكبها صاحب العدوان فيعاقب عليها عقاباً شديداً في الدنيا أو في الآخرة .. وأن سبب هذه العقوبة هو التجاهل لنعمة من نعم الله على عباده فقد وجب أن نعتبر في ضوء هذا المنطق الديني بأن كل عدوان على أي نعمة من النعم الإلهية وحرمان النفس أو حرمان الآخرين منها هو خطيئة كبرى أيضاً تقدر بقدرها.

****

إن حرمان النفس أو الغير من أي مصدر من مصادر النعم هو إخلال بشروط الاستخلاف التي فرضتها العناية الإلهية .

فالإنتحار مثلاً هو إخلال بشروط الاستخلاف لأنه قتل للنفس مع العلم أن هذه النفس هي بعض ما أنعم الله به على خلقه .. وقتل الغير دون مبرر شرعي هو أيضاً إخلال ببعض هذه الشروط وتجاهل لإرادة الله عز وجل . ويترتب على هذه الرؤية أن نقرر بأن من شروط الاستخلاف الحفاظ على كل النعم التي أنعم الله بها على عباده باعتبار أن حسن الاستفادة من هذه النعم شرط من شروط الحفاظ على النعمة الكبرى التي هي الحياة.

والحياة أمانة موضوعة بين يدي الإنسان . والحفاظ على هذه الأمانة يعني الالتزام لشروط حمايتها من المرض والجوع والألم وكل أنواع الحرمان ولا سبيل إلى ذلك إلا بحماية البيئة التي هي مستودع بقية النعم بكل صورها وأبعادها المختلفة .

****

هكذا وقد دلنا الله عز وجل إلى الطريقة المثلى التي يستمر بها تدفق هذه النعم على عباده فقال عز من قائل : "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ". الآية (7) من سورة ابراهيم . وقال تبارك وتعالى:"وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " الآية (26) من سورة الأنفال. وقال أيضاً : " وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " الآية (78) من سورة النحل.

وتتعدد الآيات التي تتحدث عن الشكر عشرات المرات في أثناء الإشارة إلى نعمة أو جملة من النعم الإلهية . ولما كان هذا الشكر مرتبطاً باستمرار النعم فقد وجب أن يكون الحفاظ عليها شرط هذا الشكر وسبيلاً إليه . فمن عمل عملاً يتعارض مع استمرار هذه النعم فقد قطع الطريق على شكر الشاكرين . وتقدر خطيئته بقدر ما تحققه من الخسارة والفساد.

ولما كانت الموارد الطبيعية من النعم التي أنعم الله بها على الإنسان فإنّ كل إساءة إليها بالتلويث أو سوء الاستخدام أو حرمان الناس منها بغير حق هما متعارضان مع شكر الله على نعمه ، بل هما على نحو من الأنحاء نوع من القتل البطيء للنفس التي سخر الله لها السماوات والأرض وما بينهما كما ذكرنا ذلك من قبل.

خـاتمـــة

الآن وقد استوعبنا موقف الشريعة من ظاهرة التلويث وعواقبها الوخيمة باعتبار أنها معطلة للمقاصد التي جاءت الشريعة لتيسير الوصول إليها ، فقد رأينا أن نطرح صورة تعين فيها المعالم الأساسية لدعوة الإسلام ، هذا الدين الذي جاء على لسان محمد صلى الله عليه وسلم نوراً وهدى ورحمة للعالمين.

أما المعالم الرئيسة التي تتحدد بها الشخصية العامة لدعوة الإسلام فإنّ من الممكن تعينها كما يلي :

1) اعتناق الوحدانية هو وحده الذي يفصل بين الإيمان والكفر أو بين الهداية والضلال، فالعمل الصالح لا يخدم صاحبه ما لم ينعقد في ضوء الإيمان .. أما العمل السيء مع وجود الإيمان فإنه قد يجد ما يحفز صاحبه إلى التوبة ما دامت في قلبه بقية من عقيدة . وهذا هو معنى قوله عز وجل : " إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا " الآية (48) من سورة النساء.

2) يترتب على عقيدة الوحدانية الفصل التام بين الذات الإلهية الخالقة وبين المخلوقات . فعلاقة الله بمخلوقاته هي علاقة الربوبية وعلاقة المخلوقات بخالقها هي علاقة العبودية . وهذا يعني أنه ليس في الوجود غير رب ومربوبين يتساوون في عبوديتهم لهذه الربوبية، وبالتالي ليس في الوجود أنصاف آلهة ولا مخلوقات لها دالة على الله بغير إذنه.

3) ولما كان الخلق كلهم عباداً لله فقد وجب أن يكونوا ملكاً خالصاً له عز وجل لا شريك لله في ملكه : " لِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " الآية 120 من سورة المائدة.

4) فإذا كان كل شيء ملكاً لله عز وجل فقد أصبحت ملكية الإنسان لما تحت يده مجرد خلافة، فهي أمانة بين يديه استخلف عليها.

5) والخلافة هذه واسعة جداً حتى أنها تشتمل على كل ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما ذلك لأن هذا الملك العريض مسخر كله للإنسان ينتفع بما فيه من النعم بالشروط التي وضعها صاحب هذا الملك العظيم.

6) أما الشروط التي وصفها الله عز وجل فمن أهمها التعامل مع هذه الأملاك في ضوء السنن والقوانين التي تنتظم بها تحركاتها كلها لا فلا تبديل لخلق الله ولا تحويل في سنته إلا بأمر منه.

7) يترتب على العمل بهذه الشروط أن يحافظ الإنسان المستخلف على سلامة الأرض التي يجد فيها الملجأ والسكن وراحة نفسه، وكل إفساد لها هو إخلال بمسؤولية الأمانة. وما يصحّ على الأرض يصحّ على النبات والمياه والحيوان والهواء وأخيراً على مصدر من مصادر النعم الإلهية التي لا تحصى كما يخبرنا الله عز وجل .

8) وتدعيم الالتزام للأمانة التي استخلف الإنسان عليها يتمّ بتوجيهات تعليمية في مقدمتها الاتّعاظ بالأمم السابقة التي سادت ثم بادت . فكانت سيادتها بفضل حفاظها على شروط التعامل مع المخلوقات المسخرة ،ثم كان دمارها بسبب من تجاهلها لشروط هذا التعامل.

9) وقد كان القصص القرآني الوسيلة الأساسية التي لجأ إليها وحي السماء ليطرح أمام الأجيال اللاحقة صورة حقيقية لما تعاقب على الأمم الماضية من خير وشر، ومن نجاح وفشل، بحيث يصبح هذا القصص شاهداً في طريق الأجيال اللاحقة ينير لهم طريق الفوز في الدنيا والآخرة .

10) هكذا يتبين لنا أن التعامل مع كل المخلوقات في حدود الحفاظ على سلامتها وتدعيم الصورة التي خرجت بها من بين يدي الله هو شيء في صميم العبادة . وكل إساءة موجهة إلى الأرض أو الجو أو البحر وحيوانها ونباتها ومياهها هي عملية تلويث تتعارض مع واجب الشكر لله عز وجل وتضعف دور العقيدة في ردع من يجب ردعه عن مقاومة هذه الإساءة .

11) وأخيراً نتعلم من جملة ما ورد في كتاب الله أن كل نشاط إنساني يتم بعيداً عن الإحساس القوي بالحضور الإلهي مصيره الزوال والخراب . وقد طالما حذرنا الله نفسه في وحيه الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم مؤكداً لنا أن إعمار الأرض لا يبلغ غرضه ما لم يرتبط بذكر الله .. وهو يقدم إلينا فيما يقدمه من العبر العلمية ما يؤكد الربط الدائم بين النشاط الإنساني وبين عقيدة الوحدانية . من ذلك قوله عز وجل يحدثنا حديث أمم سبقت كانت كثيرة العدد شديدة القوة كثيرة العمارة لكنها لم تحافظ على سلامة عقيدتها فبادت وخربت ولم تجد في العمارة ما يحول دون ما أصابها من سوء المصير :

" أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " الآية (9) من سورة الروم.

هكذا يتبين لنا أن توعية الناس بالعقيدة وتوكيد الربط بينها وبين كل إنسان يصدر عن صاحبها بحيث يتذكر المؤمن بأن إيمانه يزيد بزيادة التزامه لشروط السلامة والصحة ويضعف بضعف التزامه لهذه الشروط بحيث يبلغ حافة الكفر، نقول : إن توعية الناس بهذا الأسلوب هي خطة في صميم روح الإسلام وجزء أساسي في التربية الإسلامية . فلا إيمان لمن لا أمانة له .. ومن الأمانة رعاية ما يأتمننا الله عليه من الحفاظ على مصادر نعمه وعلى مصالح الناس وسلامتهم .. كما لا إيمان لمن لا نظافة له .. ومن شروط النظافة التي هي جزء من الإيمان الحفاظ على نظافة البيئة .

وخلاصة القول أن مقاومة التلوث لا تنجح بفضل جهود تبذلها الدولة حفاظاً على البيئة وحماية لها فقط بل يشترط نجاحها بمشاركة كل مواطن في حماية هذه البيئة وذلك بتقديم العون للدولة في الميدان الذي ينشط فيه. والمشاركة هذه لا تتحقق ما لم يقتنع المواطن بفضل توجيه إعلامي مكثف ومستمر بأن حماية البيئة هي في صميم العبادة ورمز للالتزام بالعقيدة .

إن ما يسمّى الوعي الحضاري هنا هو هذه المشاركة التي يلتزم معها المواطن لما تلتزم له الدولة أو الهيئة العاملة في حماية البيئة .

إن المشكلة التي يعاني منها المواطن المسلم لا في المملكة العربية السعودية وحسب بل في كل أرض عربية وإسلامية هي ظاهرة تقلص مفهوم العبادة بحيث تنحسر عن الميادين العملية ولا سيما الاجتماعية منها، فلا تعود أكثر من طقوس معزولة عن أكثر شؤون الحياة مع العلم أن القرآن الكريم قد علمنا غير ذلك في قوله : " اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ " من الآية (45) من سورة العنكبوت (29).

والفحشاء والمنكر لا يرمزان إلى الكذب أو الزنى وحسب بل يرمزان أيضاً إلى الجهل والاستهتار وتجاهل حق الناس ، والإفساد في الأرض على أنواعه المختلفة.

والغريب أن تقلص مفهوم العبادة وانحسار دور العقيدة ظاهرتان موجودتان رغم عشرات الآيات والأحاديث النبوية الشريفة التي تحض على تنمية روح الأخوة والتعاون والتكامل الشامل بالمفهوم الاجتماعي الاقتصادي مما لا تخطئه العين ولا تتعامى البصيرة عنه.

في ضوء ما سبق نستطيع أن نطرح المقولة التالية ونحن نواجه مشكلة التلويث التي سببها التقدم الصناعي من ناحية والاستهتار بمصالح القطاع العام من ناحية أخرى:

إن مصير النهضة في عالمنا العربي الإسلامي رهن بالنجاح في تنظيم إعلام موجه إلى الناس كافة يقصد به توسيع مفهوم العبادة ، وقد ورد الإيمان بحيث يصبح كل نشاط حضاري يقرره العلم وتنادي به المصلحة العامة في كبير الأمور وصغيرها داخلاً في مفهوم الإيمان وجزءاً من العبادة المفروضة على المؤمنين كافة.

هكذا يصبح الإسلام مصدراً لمسيرة حضارية شاملة تنطلق من قاعدتين أساسيتين :

1) النصوص القرآنية المحكمة وما صحّ من السنة .

2) استلهام روح الإسلام ومقاصده الأساسية .

3) استخدام العقل الذي ينهض لمسؤولية تعيين المصالح المرسلة والمتجددة بتجدد الوقائع والحفاظ عليها.

رمضان لاونـد

الكويت في 1981/4/12

7 جماد الآخرة 1401 هـ